طرائف من التاريخ

مصطفى الشهابي

الكتاب: طرائف من التاريخ

الكاتب: مصطفى الشهابي

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

APA

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

الشهابي ، مصطفى
طرائف من التاريخ / مصطفى الشهابي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٢٢ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ١ – ٥٩٥ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٧٢٣٥ / ٢٠٢٢

طرائف من التاريخ



طابع بريد يثير حرباً

المعروف أن طوابع البريد ما هي إلا سند حكومي بتسلم أجرة نقل البريد مقدمة، غير أنها تستعمل أحيانًا للدعاية بأنواعها المختلفة بين الدول؛ ولكن بعضها يتغالى في استغلالها لهذا الغرض. ومن ذلك ما فعلته حكومة باراجواي عندما أصدرت عام ١٩٢٤ طابعًا خاصًا يحمل خريطة لبلادها، غير أنها أدخلت ضمن حدودها إقليم جران شاكو "Gran Chaco" الذي يقع على نهر بلكمايو "Pilcomayo" على حدود بوليفيا، وتبلغ مساحته نحو ٩١,٠٠٠ ميل مربع، وهو إقليم مليء بالغابات الكثيفة بالأشجار والمحاصيل الكثيرة، وقد دفعتها إلى ذلك رغبتها في أن تعلن للعالم أجمع أنه ضمن أراضيها، فقد كان بين الدولتين خلاف منذ عام ١٨٧٠ حول ملكيته، وبرغم تحكيم المستر هاريسون رئيس الولايات المتحدة عام ١٨٨٩، وحكمه بضمه إلى باراجواي وإقامة مدينة فيلا هاريسون "Villa Harrison" تذكارًا لهذه المناسبة السعيدة، إلا أن بوليفيا تاقت إلى ضمه. فلما شعرت بذلك باراجواي أصدرت طابع البريد ليكون مسجلًا ومعلنًا لحقها.

أثار ذلك حفيظة جارتها بوليفيا، واعتبرت تصرف باراجواي تحديًا ظاهرًا وصفعة أليمة فأجابت على ذلك بإصدار طابع مماثل عليه خريطة بوليفيا، وقد ضمت بين حدودها إقليم جران شاكو، وقد ذكر باسم شاكو البوليفاني "Chaco Boliviano".

فأجابت باراجواي بإصدار طوابع ميزت فيها لون إقليم جران شاكو بلون داكن، أحدها كان بمناسبة مرور خمسين عامًا على تحكيم الرئيس هاريسون، وآخر كتب عليه بالإسبانية (لغة البلاد) "إقليم جران شاكو كان دائمًا ولا يزال تابعًا لباراجواي".

وفي الوقت نفسه قامت المناوشات على الحدود، وبدت الحرب على الأبواب، فقطعت العلاقات الدبلوماسية، ولجأت باراجواي إلى عصبة الأمم، ولكن مؤتمر الدول الأمريكية تدخل في الأمر، وعرض على الدولتين مشروع اتفاق رفض من المتنازعين، وبدأت مفاوضات مباشرة، بين الحكومتين. ولكن الاعتداءات الحربية لم تقف. وأخيرًا اتفق الطرفان مؤقتًا في عام ١٩٣٠ أن يوقفا الحرب عند ما طلبت إليهما عصبة الأمم ومؤتمر الدول الأمريكية ذلك، وعادت الحال إلى ما كانت عليه، غير أن العداء عاد من جديد وتمكنت باراجواي من إثبات حقها في الجران شاكو بالقوة، ولكنها فشلت في احتلال أية بقعة من أراضي بوليفيا، فلجأت عصبة الأمم إلى حظر تصدير الأسلحة إلى باراجواي في حين أباحته لبوليفيا، فانسحبت الأولى من العصبة.



طابع بريد الأرجنتين   طابع بريد باراجواي   طابع بريد بوليفيا

وأخيرًا تهادنت الدولتان هدنة تمت في أثنائها تسوية هذه المشكلة بفضل تدخل أمريكا، وذلك بمنح باراجواي أكبر جزء من الجران شاكو مقابل التصريح لبوليفيا بالملاحة في نهر باراجواي حتى المحيط دون إقامة أي عائق، وكان ذلك في أكتوبر سنة **١٩٣٥**.

وما كادت أزمة تلك الطوابع تسوى حتى قامت أزمة أخرى بسبب طابع بريد أصدرته الأرجنتين في عام **١٩٣٦**، وعليه خريطة فيها جزائر فلكلند وجزء من شيلي باعتبار أنها أراض أرجنتينية، غير أن الاحتجاج الدبلوماسي الذي تقدمت به شيلي وإنجلترا (باعتبار جزائر فلكلند من أملاكها) أسفر عن احترام الأرجنتين للحدود المقررة.

ومن الطريف أن أغلب دول أمريكا الجنوبية وقتئذ أصيبت بحمى إصدار الطوابع المبينة لخرائطها، ولكنها كانت كلها فيما عدا ما ذكرنا– مطابقة للحدود المصطلح عليها، فلم تنجم عن إصدارها أية مشاكل أو أزمات.

وزير يأكل ابنه

قامت في جنوب بحر قزوين في القرن التاسع والثامن والسابع والسادس قبل الميلاد، دولة الميديين "**Media**"، حكمها في أواخر عهدها الملك أستياجس "**Astyages**" (من ٥٩٣- ٥٥٠)، وكانت تضم بين حدودها جزءًا كبيرًا من بلاد الفرس الحالية.

ورأى هذا الملك ذات ليلة أن في حديقته شجرة زرعها بيده تمتد وتنمو حتى ظللت أغصانها أكثر أنحاء مملكته وما يجاورها. وعندما فسرت له تلك الرؤيا على أن ابنته مندان، زوجة قمبيز "**Cambyses**"[١] أمير فارس، تلد غلامًا ينتزع الملك من جده أستياجس عندما يتولى مكان أبيه قمبيز، فأجمع الملك أمره على الحيلولة دون وقوع مثل ذلك الأمر، فاستقدم ابنته لتضع مولودها في رعايته. وما كاد يتحقق من أن حفيده غلام حتى احتال على اختطافه ليلًا، ثم سلمه إلى وزيره أرباغوس موصيًا إياه بقتله ليطمئن على مستقبله، ولكن الوزير لم يشأ أن يرتكب تلك الجريمة بنفسه، فسلم المولود إلى أحد الرعاة وأوصاه أن يوارى به في الصحراء ويأتيه بما يدل على موته. وكانت للراعي زوجة حامل، فلما أدلى إليها زوجها بما عهد إليه أبت عليه تنفيذه.

واتفق أن وضعت تلك الزوجة الرؤوم ليلتئذ طفلًا ميتًا، فابتهجت

()١ قمبيز هذا هو جد قمبيز الذي أغار على مصر سنة ٥٢٥ ق. م.

بإبقائها على حياة الأمير الصغير، وأعطت زوجها مولودها الميت ليلقيه في الصحراء، فقطع الراعي أذن طفل وحملها إلى الوزير برهانا على قتل الطفل.

وأخذت زوجة الراعي تربي الأمير حتى شب، فظهرت عليه دلائل النجابة وعلامات الإمارة، ولذا اختاره زملاؤه أبناء القرية رئيسًا عليهم يطيعونه مختارين. وكان شديد البأس على أقرانه لا يتوانى عن جلد من يخالف أمره. وتحدث الناس بأمر هذا الفتى حتى وصل نبأه إلى الملك إثر شكوى أحد الأشراف لاعتداء فظيع وقع على ابنه. فاستدعى الملك هذا الزعيم الصغير، ولشد ما أدهشته فصاحته وجرأته.

ولحظ الملك شدة الشبه بين هذا الفتى وبين ابنته، فاستدعى الراعي إليه وسأله عن هذا الفتي، فادعى أبوته له، ولكن الملك ارتاب في الأمر، ولا سيما أن سن حفيده– لو بقي حيًا– لكانت مماثلة لسن هذا الفتى. فشدد عليه السؤال وهدده بالعذاب، فاعترف الراعي بكل ما حدث، فعفا عنه؛ ثم طلب وزيره وسأله أن يصارحه بما فعله بالوليد الذي دفع به إليه ليقتله منذ عدة أعوام، وصارحه بشكوكه، فأدلى إليه الوزير بما حدث وطلب منه الصفح.

واستسلم الملك للقدر، ولكنه فكر في الانتقام من وزيره، فأظهر علامات الارتياح، واقترح أن يرسل الوزير ابنه إلى قصر الملك ليتربى مع حفيد الملك، كما دعاه إلى تناول العشاء معه ليلتئذ.

وخدع أرباغوس يقول الملك، فبعث بولده ووحيده إلى البلاط الملكي، فلما علم الملك بقدومه أمر بذبحه وتقطيعه وطبخ لحمه ألوان مختلفة من الطعام تقدم وقت العشاء لأرباغوس، وأن يحتفظ بالرأس والقدمين في سلة حتى يطلبها.

وعندما حان وقت العشاء قدم الخدم إلى أرباغوس ما طهي من لحم ابنه، وقدمت للملك وللمدعوين أطعمة أخرى. ولما انتهى العشاء داعبه الملك مستسفرا عن رأيه في طعام تلك الولية، فأجاب الوزير بأنه ما تناول في حياته ألذ وأشهى مما قدم إليه. عندئذ أمر الملك بإحضار السلة ووضعها أمام أرباغوس. فلما جيء بها أمره الملك برفع غطائها، فلما رفعه ورأى بها بقايا ابنه اقشعر جسمه وتقزرت نفسه وتحطم قلبه وكاد يفقد رشده لولا بقية من التجلد أظهرها خشية على نفسه، ولم يجد ما يتملق به ملكه سوى قوله: كل ما يصنعه مولاى مقبول.

وعاد الوزير إلى بيته حزينًا كئيبًا، يحمل بقايا ابنه، قام بدفنها وأخذ يتصل بكورش (الحفيد)- وقد تولى الحكم بعد قليل- وهي له من الأسباب ما مكنه من التغلب على الميديين وأسر جده أستياجس وظل الوزير أرباغوس في بلاط الحفيد حتى توفي.

ملك إنجلترا لا يعرف الإنجليزية

تولت حكم إنجلترا في أوائل القرن الثامن عشر الملكة آن، وهي ابنة الملك جيمس الثاني وزوجة الأمير جورج الدانماركي. وفي خلال حياتها الزوجية أنجبت سبعة عشر طفلًا ماتوا جميعًا في سن الطفولة عدا واحدا يدعي وليم دوق جلوستر مات في الحادية عشرة؛ وقد دفنت تلك الملكة وزوجها وأبناؤها جميعًا في قبر واحد في كنيسة وستمنستر. ولعل أبلغ وصف لحياة الملكة البائسة أنها كانت حلقة متصلة من الحمل والولادة والدفن. ولم يكن للعرش الإنجليزي وارث عند وفاتها سنة ١٧١٤ سوى الأمير جورج الألماني ابن الملكة صوفيا حفيدة جيمس الأول ملك إنجلترا، وكان يومئذ حاكمًا على هانوفر بألمانيا، ولذا دعي لارتقائه باسم جورج الأول، وبذا انتقل العرش إلى بيت هانوفر" **Hanover**" الألماني وظل فيه[١].

ونظرًا لجهل هذا الملك اللغة الإنجليزية كان يحاول التكلم مع الوزراء باللاتينية التي لم يكن يحسنها، يضاف إلى ذلك افتقاره إلى الشيء الكثير من الحزم والمقدرة. وقد كانت تلك العيوب ذات أثر مهم في تاريخ إنجلترا، فقد استقل هؤلاء الوزراء بالأمر وكونوا منهم مجلس وزراء "كابينت"، ولعدم فهم جورج مناقشاتهم كان لا يحضر جلساتهم، وأصبح هذا تقليدًا

()١ غير اسم هانوفر إلى وندسور "**Windsor**" في عام ١٩١٧ خلال الحرب العظمى الأولى مراعاة للشعور العدائي نحو ألمانيا.

لمن تولى بعده من الملوك؛ وبالتدريج انتقلت السلطة للوزراء وأصبحوا الهيئة القابضة على السلطة الفعلية ما داموا حائزين لتأييد البرلمان، وانتقلت أغلب سلطات التاج إلى البرلمان فازدادت مكانته وأصبحت له الصدارة السياسية في جميع أمور الدولة.


السير روبرت والبول

ومن تلك الظروف كلها نشأ نظام مجلس الوزراء **The Cabinet**، كأداة للحكي في إنجلترا، وصارت الهيئة التنفيذية مسئولة في النهاية أمام البرلمان والفضل في تثبيت هذا النظام يرجع إلى السير. روبرت والبول "**Robert Walpole**"، الذي تولى منصب رئيس مجلس الوزراء من سنة ١٧٢١ إلى سنة ١٧٤٢، فتمكن في خلال هذه السنوات من وضع أسس هذا النظام وإعطاء الوزارة المركز الخطير الذي تشغله الآن.

إمبراطور يقف حافياً بباب البابا ثلاثة أيام

في سنة ١٠٧٣ تولى هلدبراند[(١)] منصب البابوية باسم جريجورى السابع، وكان ضئيل الجسم إلا أنه كان ذا شخصية قوية جذبت إليه الرهبان والأساقفة والأشراف وسائر رعاياه. وقد هاله ما رآه من نفوذ الإمبراطور على القسس وأثر ذلك في انحرافهم عن الدين وانغماسهم في الملاذ الدنيوية، فصمم أن يكون أكبر رأس في العالم المسيحي، فأعلن أن الحبر الأعظم لا يدانيه أحد، وأنه وحده الذي يستطيع تعيين الأساقفة وإقالتهم، وأن أحدا لا يستطيع محاكمته، وأن الكنيسة الرومانية لا تخضع لسلطان غير سلطان البابا، وأنه يستطيع عزل الأباطرة. وسخر بالنظرية القائلة بأن الإمبراطور ظل الله في أرضه، كما أعلن أن الإمبراطورية تعتمد على البطش والقوة، في حين أن الكنيسة تعتمد على الفضيلة، وأنها معصومة من الخطأ، وأن على رجال الدين أن يحلفوا يمين الولاء له دون سواه.

وقد بادر بإرسال نوابه إلى مختلف الدول ليقوموا بمهمة السفارة عنه لديها، كما طلب إلى الملوك جميعًا إرسال العشور إليه، وذكرهم بأن أراضيهم قاصيها ودانيها تابعة له. وفي الوقت نفسه حرم على جميع رجال الدين قبول مناصبهم إذا صدر تعيينهم عن غير طريقه، كما حظر عليهم

()١ ولد في توسكاني، وتخرج في دير كلوني، واشتغل سكرتيرة للبابا السابق، وكان خطيبًا مصقعًا يميل للإصلاح.

الزواج، ومنع المتاجرة بالوظائف الدينية، وهددهم بالحرمان إذا ما خالفوا أمره.

وقد أدت تلك الإجراءات إلى نشوب نزاع بينه وبين الإمبراطور هنري الرابع[١]، الذي كان إمبراطورًا حاذقًا أراد أن يظل تعيين الأساقفة في ألمانيا في دائرة سلطانه، وأن تكون طاعتهم للإمبراطور أولًا، ثم للبابا ثانيًا، وهذا ما لم يرض به هلدبراند، فأعلن هذا في سنة ١٠٧٥ أن أي إمبراطور أو ملك أو دوق أو مركيز أو كونت أو أي إنسان يدعى حق تولية رجال الدين فعقابه الحرمان[٢].

بهذا أعلن البابا عزمه على أن يخضع الأساقفة لسلطانه هو إلا السلطان الإمبراطور والأمراء الذين كان الإمبراطور يعتمد عليهم في إدارة الإمبراطورية. ولكنه لقي مقاومة شديدة من قبل الأشراف والأساقفة أنفسهم، لأن بعض القساوسة كانوا أمراء أيضًا، فلم يوافقوا على جعل السلطة المطلقة في تعيينهم بيد البابا.

غير أن البابا لم يأبه لهم وعاقبهم بالحرمان، فعقد هنري الرابع مجمع ورمس "Worms" في سنة ١٠٧٦ وأعلن عزل البابا وكتب إليه:

"من هنري الملك، لا بطريق الاغتصاب ولكن من قبل الله تعالى

إلى هلديراند الذي لم يعد بابا الآن، ولكنه أصبح راهبًا مزيفًا.

()١ إمبراطور ألمانيا، وقد تولى سنة ١٠٥٦ وعمره يومئذ ست سنوات.

()٢ ولد في توسكاني، وتخرج في دير كلوني، واشتغل سكرتيرة للبابا السابق، وكان خطيبًا يميل للإصلاح.

اعتزل وانزل عن الكرسي الذي اغتصبته، واترك آخر يعتلي عرش القديس بطرس، لا يبطش بالناس تحت ستار الدين، ولكن يعلمهم مبادئ القديس بطرس الصحيحة.

وأنا هنري الملك بنعمة الله أقول لك: انزل، انزل، ولتلعن في جميع الأجيال.

وكان جواب البابا:

أيها القديس بطرس رئيس الحواريين، أعرنا أذنك الطاهرة، واسمع من خادمك الذي رعيته منذ طفولته، والذي حميته من الشريرين الذين يكرهونك ويكرهونه..

إلى أن قال: "وأنا أحل كل المسيحيين من قيود اليمين التي أقسموها لهنري الإمبراطور، وأمنع أي واحد أن يخدمه كملك مادام قد رفض بازدراء أن يطيع كمسيحي، ولم يعد إلى الله بعد أن هجره، فعليه اللعنة..."

ومالت إيطاليا كلها تقريبًا إلى جانب البابا، وآزرته دول خارجية، وكان له أنصار في ألمانيا نفسها، ولذا اضطر هنري عندما خذله النبلاء أتباعه أن يعمل على إرضاء البابا قبل وصوله إلى أجز برج "**Auggborg**" لمساعدة أمراء ألمانيا على تعيين خلف لهنري. فقد عقد هؤلاء مؤتمرًا قرروا فيه أنه إذا لم يرفع الحرمان عن الإمبراطور بعد مرور عام خرجوا عن طاعته واختاروا آخر بدلًا منه.

فعبر الألب في شتاء عام ١٠٧٧؛ وكان هلدبراند مقيمة في قلعة كانوسا[١] "Canossa" ضيفة على ماتيلده ملكة توسكانيا. وأرسل الإمبراطور رسله ليسمح له البابا بالمثول بين يديه ليسأله الغفران، فرفض البابا؛ ولبث الإمبراطور ثلاثة أيام متعاقبة واقفًا بباب القلعة حافيا عاري الرأس مرتديًا ثوبًا من الوبر. ورفض البابا ثلاث مرات مقابلته، وأخيرًا رجت ماتيلده البابا أن يأذن بلقائه، فقبل رجاءها؛ وعندما دخل هنري ألقى بنفسه على أقدامه، فأخذ البابا بيده، وغفر له ذنبه، وألغى الحرمان، وأعاد إليه عرشه. وجاء في النطق البابوي: "وبناء على إلحاحه ورجاء الحاضرين قد رفعنا عنه الحرمان وعفونا عنه".



الإمبراطور هنري الرابع يطرق باب البابا

ولم يكن هنري وضيعًا كما بدا، فقد أنقذ نفسه في ألمانيا بهذا الخضوع، وعاد إلى وطنه وجمع قوته، وتحدى البابا الذي أعلن خلعه من جديد. وأعلن هنري بدوره خلع البابا، وأعطى أسقفًا ألمانيًا لقب البابوية، وسار

()١ وهي قلعة تقع على المنحدرات الشمالية لجبال الأبنين.

بجيش كبير، وعبر التيرول، ودخل إيطاليا عن طريق فيرونا "Verona"، حتى غدا على أبواب روما، غير أن الملاريا أصابت جيشه، فعاد إلى ألمانيا، وعاود الكرة بعد ثلاثة أعوام سنة ١٠٨٤، ودخل روما وحاصر البابا في قلعة سنت أنجلو "St. Angelo"، فطلب البابا معونة روبرت جزكارد "Robert Guiscard" وكان دوقًا على الجزء الجنوبي لإيطاليا "Apulia" فتقدم روبرت الذي لم يرغب في وجود إمبراطور بروما، وأنتقد البابا. غير أنه أعمل في روما السلب والنهب بشكل لم تعهده في غارات البرابرة، ولهذا كره الرومانيون البابا وانقلبوا عليه، فغادر روما إلى ساليرنو، حيث مات منفيًا عام ١٠٨٥.

جيش من الصبيان

عندما انتشرت في أوربا الدعوة إلى تخليص بيت المقدس من المسلمين قامت حملات كثيرة من أبنائها أصاب بعضها النجاح ومنى بعضها بالهزيمة. وأخلد تلك الحملات ذكرًا حملة ريتشارد قلب الأسد ومقاومة صلاح الدين له، وما أظهره البطلان من شجاعة وفروسية سطرها التاريخ لكليهما في صحائفه الذهبية. غير أن الصلح بين صلاح الدين وقلب الأسد لم يمنع نشوب الخلاف مرارا بعد وفاقهما، مما استدعى قيام الحرب وإرسال حملات أخرى أغربها حملة الأطفال سنة ١٢١٢؛ فقد دار في خلد بعضهم يومئذ أن الفرسان وغيرهم من طوائف المحاربين لم ينالوا النصر في تلك الحرب الدينية لأنهم ملوثون بالآثام الدنيوية.



ولما كانت بعض طوائف الغلمان في أوربا قد عاصرت تلك الحروب فقد كانت تسليتهم هي "لعبة الحروب الصليبية"، فكانوا يعملون صلبانًا من القماش أو الورق ويضعونها على صدورهم، كما كان يفعل آباؤهم، ثم ينقسمون إلى معسكرين. وتطورت الفكرة في ذهن من شبوا عن الطوق منهم، وخيل إليهم أنهم الفئة الوحيدة الطاهرة الخالية من الذنوب التي تضمن النصر.

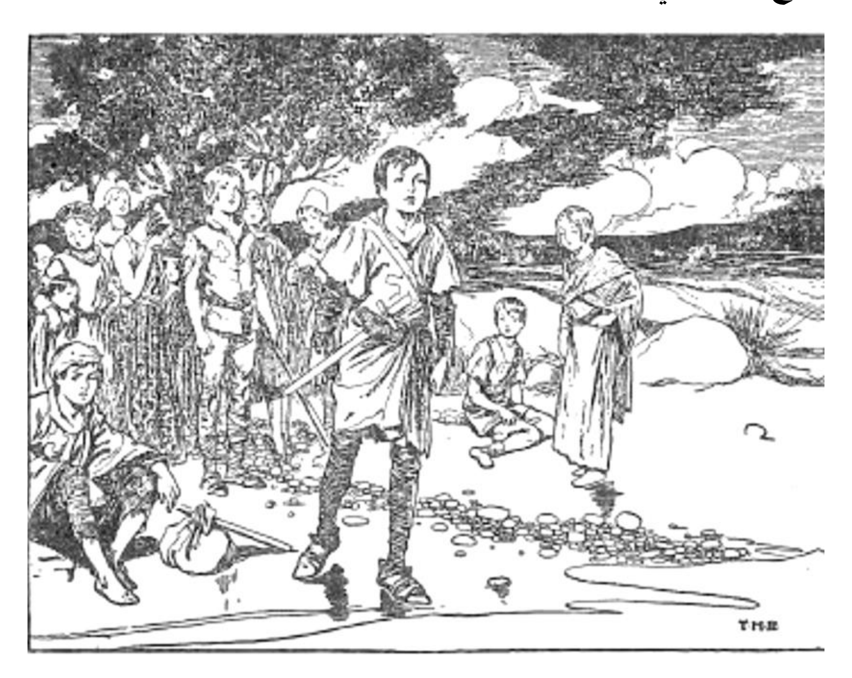
وانتشرت الفكرة وتحمس لها الكثيرون في فرنسا وألمانيا. وما كاد ينتصف الصيف حتى تصدر لزعامها غلام فرنسي يدعى ستيفن، وأخذ يضم صفوف أقرانه ويبث فيهم روح الحمية مناديًا بأن أسلحتهم الضعيفة ستهزم أعداءهم بفضل صدق إيمانهم، وأنهم بأجسامهم الضئيلة سينتصرون إذا ما خلصت نواياهم وصحت عزائمهم، وأن البحر الأبيض سينشق أمامهم كما انشق البحر الأحمر أمام موسى!

جيش الصبيان محترفي إحدى المدن

وأخذ يجول في البلاد يجمع حوله الصبيان الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة والثالثة عشرة، حتى استطاع حشد أربعين ألف صبي ممن آمنوا بفكرته واستجابوا لدعوته.. وبلغ الحماس أشده فانضمت إليه بعض الفتيات ليسهرن على خدمة ذلك الجمع الهائل، وبارك البابا أنسنت الثالث تلك الحركة، وأرسل أعلامه ينشرها هؤلاء المجاهدين ويسيرون تحت لوائها، كما أخذ بعض القسس يدعون لها وينادون بالانضمام إليها.

وبرغم معارضة آلاف الآباء، ومحاولتهم إقامة العراقيل بالقول والفعل،

سارت تلك الآلاف وراء ستيفن ينشدون الأناشيد الحماسية الدينية؛ وكلما أشرفوا على بلدة تساءل صغارهم: أهذه هي أورشليم؟ ولكن الحقيقة المرة كانت تجابهم فتفت في عضده. وأخذت تلك الأمواج المتدفقة تتدافع دون وعي ودون زاد أو مؤونة إلا ما جاد به المحسنون.



بقايا جيش الصبيان في حالة يرثي لها

وبدأ التعب يتسرب إلى تلك الأقدام الصغيرة، وأخذ الجوع يهاجم تلك العيدان الخضراء، ولم تجد ما يكفيها لدى أبناء القرى والبلدان التي كانوا يمرون بها، فعمدوا إلى اختطاف ما يقيم أودهم، ولجأ الأهلون إلى الدفاع عن مزروعاتهم، فكانوا يقابلونهم بالاعتداء الشنيع.

واستمرت تلك الجموع في سيرها والجوع يفتك ببعضها، والمرض يقعد

بعضها الآخر، والموت يقتطف كل يوم عشرات، ويتخلف آخرون ممن امتدت إليهم أيدي ذوي القلوب الرحيمة يؤووهم مع أبنائهم، أو اختطفهم ذوو النفوس الشريرة ليستخدموهم في مزارعهم.

وعندما أشرفت البقية الباقية منهم على البحر وجدوا أمواجه الصاخبة تهدر مهددة كل من يجسر على النزول. إليه. فتقدم ستيفن وضرب البحر بعصاه ثلاث مرات كي تظهر المعجزة التي وعدوا بها وتفسح لهم المياه طريقة بين ثناياها ولكن عبثًا.

وأخيرا لجأوا إلى الموانئ القريبة، وترامي النبأ إلى أصحاب السفن فهرعوا إلى مواطن تجمع هؤلاء الأبرار الأطهار، وعرضوا عليهم أن ينقلوهم إلى الأراضي المقدسة دون أجر. ورحب الأبطال الصغار بهذا العرض الكريم، ولكن السفن لم تحملهم إلى فلسطين بل حملتهم إلى شواطئ بعض البلاد الإفريقية حيث بيعوا رقيقا.

يشنق بعد موته

جاهدت إنجلترا منذ عدة قرون في سبيل تدعيم سلطة الشعب والحد من نفوذ الملوك، وأول قانون اعترف بحرية الفرد وقضى باستشارة البرلمان في فرض الضرائب هو العهد الكبير "**Magna Carta**"(١) سنة **١٢١٥**، غير أن بعض الملوك طغى على سلطان البرلمان وبدأت سلسلة من المنازعات بينهما انتهت بانتصار الأمة، كما حدث سنة **١٣٩٩**، إذ ثار النبلاء على الملك وتشرد الثاني بسبب عزمه على أن يكون ملكًا مطلق الحكم في البلاد، وقد انتهت تلك الثورة بخلعه.

ثم تلت ذلك أحداث داخلية وخارجية تقلبت فيها سلطة الملاك صعودًا وهبوطًا حتى عهد شارل الأول الذي زج بنفسه في سلسلة من المشاحنات مع البرلمان حول المسائل المالية والسياسية مما انتهي بخذلانه، وعندئذ صمم على حكم البلاد بغير برلمان محتقرا إرادة الأمة قائلًا: إن حق الملوك منحة إلهية وليس لأحد من أبناء الشعب أو رجال الدين أو أعضاء البرلمان حق محاسبتهم.

وزاد موقفه حرجًا زجه بإنجلترا في حروب تطلبت نفقات باهظة وجد معارضة كبيرة في جمعها، فعمد إلى دعوة البرلمان، ولكن الرغبة في الحد من

---

(١)) تكتب **Magna Carta** لا **Magna Charta** كما ورد في بعض الكتب الإنجليزية خطأ.

سلطانه أفسحت مجالًا للنزاع بينه وبين ممثلي الأمة، ونشب بينهما صراع عنيف تصدر لزعامته في جانب الشعب أوليفر كرمويل، وانتهى الأمر بانتصار الأمة، وحوسب الملك على أعماله وانتهى الأمر بإعدامه سنة ١٦٤٩ م.

وبدأت حكومة الصالح العام "**Commonwealth**"، وبرهن رئيسها كرمويل على أنه يملك من صفات الزعامة السياسية مالا يقل عما امتاز به من عبقرية عسكرية، إذ استطاع بمعاونة بعض أعلام عصره الإنجليز أن يخرج من الفوضى نظامًا وأن يجعل اسم الجمهورية موضع الرهبة بين القاصي والداني.

وبلغ من إعجاب الإنجليز بحامي الجمهورية كرمويل أن فكروا في أن يولوه ملكًا، وحاول البرلمان إقناعه بقبول ذلك اللقب الجديد، ولكنه رفض ذلك الاقتراح رفضًا قاطعًا.

ومما يدل على عزوفة عن تلك الفكرة من أول الأمر أنه لم يعمل يومًا ما على أن يخلفه ابنه في ذلك المنصب، فأهمل شأنه وتركه يعيش في مزارعه، ثم عينه فيما بعد عضوً في الغرفة التجارية ليخرجه من عزلته وجوده، ثم عينه مديرًا لجامعة أكسفورد وقائدًا في الجيش، ثم رفعه إلى منصب الوزارة. وعندئذ بدأ الشعب– عندما برزت إلى الوجود فكرة تنصيب كرمويل ملكًا– ينظر إلى رتشارد كرمويل ويستقبله في كل مكان كولي للعهد.

ولكن رفض كرمويل الأب للملكية– كما قدمنا– لم يمنع الشعب الإنجليزي من اختيار وتشرد ابنه مكانه بعد وفاته سنة ١٦٥٨، غير أن

الفرق الكبير بين الرجلين والتباين الواضح بين الأب والابن عمل على تقصير عهد وتشرد في الحكم، فتخلى عنه بعد بضعة أشهر[1]، وألف الخوف من الفوضى المتوقعة بين طوائف الشعب، واتجه الرأي العام، إلى استدعاء شارل الثاني من هولندا وتنصيبه على العرش، وتم ذلك في سنة ١٦٦٠.



أوليفر كرمويل

لما مات كرمويل في ٣ سبتمبر سنة ١٦٥٨ أعلنت إنجلترا الحداد على ابنها الراحل، وجارتها في ذلك كبريات الدول في أوربا ثم شيعت جثمانه إلى دير وستمنستر، مقبرة ملوك إنجلترا حتى منتصف القرن الثامن عشر،

()١ هرب وتشرد من إنجلترا ثم عاد إليها متخفيًا حوالي سنة ١٦٨٠، وعاش باسم مستعار، ومات سنة ١٧١٢ في السادسة والثمانين من عمره.

باحتفال مهيب كلف الخزان ١٥٠,٠٠٠ جنيه، ولم تشهد إنجلترا مثيله.

وعندما تربع شارل الثاني على عرش إنجلترا اعتقل الجمهوريين الثورين وأعدم كثيرة من زعمائهم وعلق رؤوسهم على الحراب فوق أبواب لندن، وتغالى الملك في الانتقام من خصوم أبيه، فأمر بمحاكمة الثوار الأموات، وآزره في هذه الرغبة بعض المتطرفين الذين أعلنوا أن قصاص الخونة لا يقف عند قبورهم بل يلاحقهم إلى أعماق تلك القبور.

ونبش قبر كرمويل واثنين من قواده في وستمنستر ونقلت جثثهم إلى تيبورن "**Tyburn**"[١] حيث علقت طوال يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٦٦١- وهو يوافق مرور اثني عشر عامًا على إعدام الملك شارل الأول- ثم فصلت جماجمهم عن أجسادهم وظلت على باب وستمنستر هول[٢] على الحراب مدة ربع قرن.

وقد اختلفت المؤرخون في مصير جثة كرمويل فبعضهم ينفي بتاتًا أنه دفن في وستمنستر، وبعضهم يزعم أنه دفن في نازبي (حيث هزمت قوات شارل الأول)، وبعضهم الآخر يذهب إلى أن الجثة ألقيت في نهر التيمز "**Thames**" في حين يؤكد فريق أن اللورد فوكونبرج "**Fauconberg**"، تمكن بنفوذه من الحصول على بقايا الجثة ودفنها في نيوبرج بيوركشير[٣].

()١ مكان على مقربة من هايد بارك اشتهر بكثرة من شنقوا فيه.

()٢ صالة ملحقة بمباني البرلمان البريطاني وقد شهدت أحداثًا بارزة في تاريخ إنجلترا منها محاكمة شارل الأول.

()٣ صالة ملحقة بمباني البرلمان البريطاني وقد شهدت أحداثًا بارزة في تاريخ إنجلترا منها محاكمة شارل الأول.

سويسرا يهزمن جيشاً نمسوياً

اشتهرت سويسرا منذ أجيال كثيرة بأنها معقل الحرية وملاذ الأحرار، وهي لم تنل ذلك الوصف إلا بعد أن جاهدت عدة قرون استطاعت أن تظهر إبانها ضروبًا من البسالة والتضحية عادت عليها بسمعة حربية دفعت الكثير من أمم أوربا إلى تقوية جيوشها بإدخال العنصر السويسري فيها لإخلاصهم في القتال وصبرهم على النضال. ولعل في فناء الحرس السويسري دفاعًا عن لويس السادس عشر ملك فرنسا أبرز مثل للإخلاص وكانت النمسا دائمًا التطلع إلى استعباد سويسرا، فكثيرة ما أغارت بجيوشها الحافلة التي كانت ترتد برغم كثرتها وهي تجر أذيال الهزيمة، ثم تعقد صلحًا مؤقتًا لا تلبث أن تنقضه بعد أن تعد جيشًا آخر وهي سببًا جديدًا للغزو. وقد حدث في عام ١٦٢٢ أن اعتزم إمبراطور النمسا أن يقف حركة انتشار المذهب البروتستانتي في جريسون "**Grisons**" (إحدى المقاطعات الشرقية في سويسرا) فأعد جيشًا كبيرًا ليغزوها. وتقدم الجيش حتى اجتاز حدود سويسرا، ولسوء حظه بدأ باجتياز وادي براتيجو"**Pratigau**"؛ وهذا الوادي ضيق جدًا تحيط به الجبال والتلال العالية ذات المراعي الغنية بالأعشاب الشهيرة بماشيتها الهيئة الضخمة.

وكان الرجال السويسريون في أعلى الجبال يرعون قطعانهم، في حين كانت النساء في أسفل الوادي يؤدين أعمالهن في المنازل أو يقمن بأعمال تكميلية في الحقول الصغيرة عند منفرجات الوادي وعلى السفوح الواطئة

للتلال المجاورة، وفيما هن كذلك إذ فوجئن بنبأ قدوم الجيش النمساوي لغزو مقاطعتهن، ووصوله إلى مدينتي كلوسترز "Klosters" ولاندكوارت "Landquart" على مسيرة ساعات منهن، فما كان منهن إلا أن بادرن إلى أسلحة أزواجهن كالحراب والسهام والأقواس والنبال، مستعينات أيضًا ببعض الأدوات الزراعية كالمدراة والمنجل، وأسرعن للقاء العدو في ممر ضيق لابد له من اجتيازه. وهرع فريق منهن إلى الأماكن العالية المشرفة على ذلك الممر وأمطرن العدو وابلا من الحجارة.

وجاء النمسويون وهم يجهلون ما أعد لهم، فما كادوا يصلون إلى منتصف الممر حتى انهالت عليهم الحجارة من السماء، وبرزت النساء المقاتلات، فاضطرب النمساويون أشد الاضطراب ودب الخلل في صفوفهم لضيق الممر واستحالة الفرار، فانثنوا على أعقابهم والنساء من ورائهم يحصدهم حصدا.

وانجلت المعركة عن هزيمة النمسويين هزيمة منكرة. وعندما حل المساء عاد الرجال إلى بيوتهم، ولشد ما اعترتهم الدهشة وملأهم العجب والإعجاب عندما علموا بما تم على أيدي نساء الوادي، فاحتفلوا جميعًا ليلتئذ بالنصر احتفالًا تردد صداه في الأيام التالية في أرجاء سويسرا كلها.

وفي الصباح اندفع الرجال لإتمام النصر، فأجهزوا على فلول الأعداء، واستطاعوا في غمرة الهزيمة التي مر بها النمسويون أن يحتلوا قلعة كاستل "Castel" وهم مسلحون بالعصي.

ومنذ ذلك اليوم أصبح من التقاليد المتبعة في ذلك الوادي أن تسير جميع النساء في مقدمة الرجال عند ذهابهن إلى الكنائس، وأن يتصدرن الاحتفالات العامة تكريما لهن وتخليدًا لبسالتهن.

الحاج علي في أمريكا

في منتصف القرن الماضي (التاسع والعشرين) أخذت الولايات المتحدة الأمريكية تمد الطرق الحديدية في أجزائها الغربية التي ضمت إليها وقتئذ، ولما كانت تلك الجهات صحراوية فقد اعترضت القائمين بالتنفيذ صعوبات جمة.

وهنا تقدم الضابط إدوارد بيل "Edward Beale" مقترحا الحل، واستطاع إقناع أولى الأمر في وزارة الحربية– وكان على رأسها جفرسن دافيز أحد الرؤساء السابقين لتلك الولايات– أن الجمال هي أصلح الحيوانات لتشابه المناطق الغربية بالصحاري الأفريقية الشمالية والبلاد العربية.

وخرج الاقتراح إلى دور التنفيذ، فأرسلت سفينة أمريكية إلى الشرق لجلب ما تستطيع من الجمال. وبعد أن طافت السفينة بالثغور الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، ومنها الإسكندرية، عادت إلى أمريكا وعلى ظهرها ٣٣ جملًا، ومن ذلك العدد تسعة جمال اشتريت من مصر بإذن خاص من سعيد باشا، لتحريم تصدير الحيوانات من مصر وقتئذ، وقد صحب تلك الحال عدد من السائقين استؤجروا من مصر وسوريا. وفي العام التالي اشترت أمريكا ٧٧ جملًا.

ولقسوة رؤساء العمل هرب كل سائقي الجمال الشرقيين ولم يبق منهم

سوى الحاج على، وهو قائد جمال سوري أشتهر في ذلك الحين باسم: هي جولي "Hi Jolly" وهو تحريف ظاهر لكلمتي الحاج على. وكانت الجمال تسير يوميًا نحو ٣٠ ميلًا محملة بالماء والأدوات، وكان بعضها يعلو الجبال المغطاة بالثلوج حيث يصعب على البغال السير، كما كانت تعبر المجاري المائية بسهولة. ولكن مظهرها كان يخيف الماشية والخيل والبغال التي لم تألف رؤيتها، فكانت تجفل منها وتلتقي بأحمالها وتفر هاربة في الصحراء، كما كان مرور الجمال بالقرى تسبقه ضجة كبرى ويصحبه تألب أهاليها لرؤية تلك المخلوقات العجيبة التي أصبحت مصدر رعب للصغار، فضلًا عن أن سائقيها الأمريكيين كانوا يجهلون كيف يسوقونها، فازدادت الشكوى، ورأت وزارة الحربية أن توقف التجربة فباعت بعض تلك الجمال، وترك ما بقي دون بيع يهيم في الصحراء حتى إذا ما قابل جمل منها قافلة حسبوه عفريتًا أو شيطان فجروا رعبًا. كما أن بعض الجمال الضالة في الصحاري كانت تهاجم القطر وتسبب حوادث جسيمة ولذلك بادرت الحكومة بإمساك ما بقي منها ووضعه في حدائق الحيوانات. ونسج القوم عن الحال قصصًا خيالية فبعضهم كان يروى أنه شاهد "الوحش ذا الرقبة الطويلة" وقد ركبه ميت عار شد إليه بشريط من الجلد، وكلما سار الحمل سقط عضو من جسم الراكب، حتى إذا ما وصل إلى راوي القصة لم يبق عليه شيء مطلقًا.

أما الحاج على فقد اشتغل بعد الاستغناء عن استعمال الجمال دليلًا للجنود الأمريكيين يرشدهم إلى محال الهنود الحمر الذين كانوا يعبثون بالأمن في تلك المناطق، حتى توفي عام ١٩٠٢ في كوارتزيت على نهر

الكلورادو في الجنوب الغربي من ولاية أريزونا. وقد اكتتب الأهالي ورجال الحكومة وشركات السكك الحديدية هناك سنة **١٩٣٠** في إقامة تمثال فوق قبره على شكل هرم صغير ارتفاعه عشرة أقدام يعلوه تمثال صغير لجمل من النحاس علوه قدمان وعلى لوحة نحاسية جانبية ذكرت عبارة تخليد وتقدير لخدمات الحاج علي.

مصرية تلد فيلًا

منذ أكثر من قرنين قدم إلى مصر جماعة من الهنود ومعهم فيل صغير، وما إن وطئت أقدامهم أرض الكنانة حتى هرع الناس من كل حدب وصوب لرؤية ذلك الضيف الغريب، واستغل الهنود غريزة حب الاستطلاع هذه فأخذوا، بعد أن استقر بهم المقام في السويس، يفرضون على المتفرجين إتاوة. ثم قدموا إلى القاهرة مارين بمدن وقرى كثيرة كانوا فيها موضع الترحاب والإعجاب، واستمروا في طريقهم نحو القاهرة حتى إذا ما أصبحوا على قيد أميال منها حطوا رحالهم ليدخلوها ليلًا حتى لا يتمتع القاهريون برؤية الفيل مجانًا! وأرسلوا مندوبا من قبلهم فاتصل بأولي الأمر في القاهرة، وأعد الإسطبل الكبير بقصر العيني لإيواء الفيل، وأفردت بالقصر بضع حجرات للضيوف الكرام، إذ كان ذلك القصر تارة دار ضيافة لمن يفد على مصر من العظماء والأمراء، وتارة سكن لبعض بكوات المالية، وذلك منذ أواخر القرن الخامس عشر، حتى صار مدرسة للطب ومستشفى في عهد مُحَمَّد على باشا.

وما كاد نبأ حضورهم وإقامتهم بقصر العيني يصل إلى الأسماع حتى بدأت وفود القاهريين تجيء للفرجة، ووقف الهنود يجمعون الدراهم من الحاضرين الذين كانوا يأتون إلى الفيل بالكعك وأصناف الحلوى فيحتجزها الهنود لطعامهم ويقدمون له منها ما يكفيه. وقد أعجب المتفرجون ما كان يأتيه من حركات تلبية للأوامر الصادرة إليه من أصحابه، وكان الإعجاب

يشتد عندما يمد خرطومه ويتناول عود من القصب لمصه.

وتوافد الناس من كل فج لرؤية هذا الفيل وجاءت بين المتفرجين زوجة لرجل حمال، وكانت حاملًا في شهرها الأول، برغم معارضة الزوج خشية تأثر مولودها بما يعرف بالوحم. ولم يكد الهنود وفيلهم يغادرون القاهرة بعد أن غنموا من المال الشيء الكثير حتى كانت الزوجة قد أوشكت أن تضع مولودها.

وجاء اليوم الموعود وانتظر الوالد الضيف الجديد، وإذا به يكاد يصعق لهول المفاجأة، فقد كان فلذة كبده وحشاشة قلبه ومنتهى أمله مولودًا شاذًا شديد الشبه بالفيل، فله مثل وجهه وأذنيه، كما كان له نابان خارجان من فمه.

وأصبح حديث القوم أن زوجة الجمال ولدت فيلًا، وأخذ الناس يفدون إلى الوالد البائس ليعزوه في محنته وليروا الفيل المصري الصميم. ولم يطل بؤس الوالد فقد انتقل ذلك المولود العجيب إلى عالم الأموات بعد أيام قلائل، فانتهت بذلك آلام الرجل. ولله في خلقه شئون!

خطة حربية في التوراة تعاد في الحرب العظمى الأولى

عندما كان اللورد أللنبي يحارب الأتراك في فلسطين رأي– لكي يفسح الطريق لهجوم عام– أن يجلي الأتراك عن قرية تدعى مخماس (وهي شمال بيت المقدس بقليل) وأدرك أنه سيتعرض لخسائر جمة لا مفر منها لكي يتم له ذلك، إلا أنه بعد طول تردد لم يجد بدًا مما استقر عليه رأيه. وفي مساء اليوم السابق للهجوم اجتمع بمرؤوسيه من الضباط ليعرض عليهم مشروع الهجوم على مخماس. وفهم الجميع الخطة التي رسمت، وانصرفوا ومن بينهم ضابط يدعى بترى أخذ يردد تلك الكلمة محاولا أن يتذكر أين سمعها أو قرأ عنها قبل ذلك. ولما وصل إلى خيمته حاول النوم، ولكنه لم يستطع، فقد بدأت كلمة مخماس تطن في أذنيه، فظل يتقلب فترة غير يسيرة من الزمن حتى تذكر فجأة أنه قرأ عنها في التوراة، فأسرع إلى نسخة كان يحتفظ بها دائمًا وتصفحها سريعًا، ولحسن حظه وفق إلى العثور على الفصل الذي وردت به، فبادر إلى خيمة القائد العام حيث أطلعه عليه.

كان الفصل خاصًا بإيضاح الوسيلة التي اتبعها يوناثان ابن الملك شاول سنة ١٠٩٣ قبل الميلاد للاستيلاء على مخماس من الفلسطينيين، وفيه ذكر لمعالم كثيرة، منها صخرتان كبيرتان تطلان على ممر سري يؤدي إلى هضبة تنحدر نحو القرية.

إزاء كل ذلك عجل القائد بإرسال فرقة كشافة للتأكد من وجود المعالم المشار إليها، ولحسن الحظ عادت الفرقة تؤكد وجودها جميعًا. وهنا انكفأ القائد العام والضابط بتري على التوراة يدرسون الخطة كما رسمتها التوراة، وألغيت الخطة التي أعلنت في بدء الليل.

وقبل بزوغ الفجر بدأ الممر السري يمتلئ بالجند، ولما اكتمل عددهم انحدروا نحو القرية وهم يصرخون، فخرج الأتراك من أكواخهم ورأوا سيل الجنود ينهمر عليهم من حيث لا يعلمون فركنوا إلى الفرار. وهكذا سقطت مخماس دون خسائر تذكر في المال والأرواح والفضل لخطة التوراة.

مالك يحكم دقيقة واحدة

عندما تولى لويس فيليب عرش فرنسا تعهد بأن يكون حكمة دستوريا، غير أنه حنث بعهده وأخذ يملى إرادته على الأمة، فعدل قانون الانتخاب تعديلًا يضمن لأنصاره الأغلبية في المجالس التشريعية، كما أخذ يقيد الصحافة والكتابات السياسية، فضلًا عن منحه رجال الأمن سلطات استثنائية لمناهضته أنصار الحرية الدستورية. يضاف إلى ذلك كله تفشي الرشوة حتى أصبحت أصوات النواب تشتري علنًا لتأييد السياسية التي يريد الملك اتباعها.

لذلك بدأ دعاة الإصلاح ينظمون خططهم، وأخذوا يطالبون بإصلاح الدستور وإلغاء الإجراءات الشاذة التي سادت يومئذ. فعارضت الحكومة تلك الحركة وقاومتها بالقوة تنفيذا لرغبة لويس انفجر بركان الثورة في فبراير سنة ١٨٤٨، فعجزت الحكومة عن إخمادها، واندفع الشعب الفرنسي ينادي بإقالة لويس الذي اضطر إلى استجابة رغبة الفرنسيين، واعتزل العرش وأقام حفيده كونت دي باريس مكانه.

ولم يكد رسوله يشرف على الجماهير الثائرة المحيطة بالقصر الملكي، ليبلغهم اعتزال الملك، وتولي حفيده كونت دي باريس، حتى ارتفع صوت من بين المحتشدين ينادي: "تسقط الملكية".

ردد الشعب النداء بحماس شديد، وعاد الرسول إلى فيليب فوجده

يعد عدته للرحيل إلى إنجلترا مستصحبًا معه حفيده الذي لم يكن قد مضى على توليه عرش فرنسا أكثر من دقيقة، بعد أن دوى في آذانه الهتاف الجديد!

السلطان محمد الرابع قريب البابا إسكندر السابع

بلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها في عهد السلطان سليمان الأول (١٥٢٠- ١٥٦٦) التي اشتهر باسم سليمان القانوني، وأصبحت تتمتع بمركز ممتاز في أوربا، ولم تكن فتوحه البحرية أقل شأنًا من فتوحة البرية، فقد تغلب الأسطول العثماني على الأساطيل المعادية في البحر الأبيض المتوسط، وأخذ ينتشر في أرجاء ذلك البحر الهلع والرعب. وكان ضمن ما انقض عليه ذلك الأسطول قلعة أسرة مرسيلي إحدى القلاع الساحلية بإيطاليا.

وعاد الأسطول إلى ضفاف البسفور يحمل الغنائم والأسلاب والسبايا، ومن بينها الفتاة الجميلة مرجريت مارسيلي التي ساقها القدر إلى قصر السلطان سلمان، حيث احتلت مكانة ممتازة، وقد ازدادت مكانتها رفعة عندما أنجبت للسلطان ابنه وخليفته سلبم الثاني.

وكان لمارجريت شقيق يدعى ليوناردو مارسيلي بذل جهدًا كبيرًا في تتبع أثرها بالآستانة ليفتديها، فلما أسفر بحثه عن أنها ألحقت بحريم السلطان عاد من حيث أتى .

ومضت الأيام وتزوجت حفيدة ليوناردو من أحد أفراد أسرة تشيجي، وولدت فابيو تشيجي الذي تربع على كرسي البابوية باسم إسكندر السابع، وكان معاصرة للسلطان مُحَمَّد الرابع سليل السلطان سليم الثاني.

وجرى دم آل مرسيلي في كل من السلطان والبابا، وإن فرقهما السياسة والدين!

المقشة شعار البحرية الهولندية
والكرباج شعار البحرية الإنجليزية

بدأ مجد البحرية الإنجليزية عقب انتصارها على الأسطول الإسباني "الأرمادا" وذلك في أواخر القرن السادس عشر، ومنذ ذلك الحين بدأ الاهتمام بالبحرية يقل لانشغال الإنجليز بالمسائل الداخلية التي كان في طليعتها العمل على توطيد النظام النيابي، والحد من نزوع ملوكها إلى الحكم المطلق، وقيام حرب داخلية انتهت بانهزام الملك شارل الأول وإعدامه، ثم تولى كرمويل حاكمًا عامًا على البلاد، وذلك في منتصف القرن السابع عشر.

تتابعت كل تلك الحوادث وغيرها في الوقت الذي كانت هولندا تعمل فيه على تأسيس شركات للاتجار مع الشرق، ولا سيما الهند وجزائر الهند الشرقية كجاوه وسومطره وغيرها، فلما شعر كرمويل بالمنافس البحري الجديد لإنجلترا أراد أن يضع حدًا للنشاط الهولندي فأصدر "قانون الملاحة" الذي حرم دخول الموانئ الإنجليزية على غير السفن الإنجليزية أو سفن البلاد التي تنتج الحاصلات الواردة إلى إنجلترا، فعاد ذلك على هولندا بالخسارة، ولذا لم تر بدًا من محاربة إنجلترا في البحر.

واستمرت الحرب مدة عامين كان شعار البحرية الهولندية فيهما "المقشة" إشارة إلى الرغبة في كنس الأسطول الإنجليزي من البحار، وأجاب

الإنجليز على ذلك باتخاذ "الكرباج" شعارًا يرمزون به إلى السيادة التامة والحكم المطلق على البحار. وكان الفريقان إذا تقابلا جعل كل منهما همه، بعد تحطيم سفن عدوه، أن يكسر شعاره ويتركه على سارية العلم. وقد ظلت تلك الحرب سجالًا برغم اشتباك أساطيل الدولتين في عدة وقائع، إلا أن هولندا سلمت أخيرا بقانون الملاحة.

ومن ذلك الحين أصبح من التقاليد المرعية في البحرية البريطانية أن تعلق مقشة مكسورة إلى سارية كل سفينة يراد بيعها تخليدًا لذكرى الانتصار في تلك الحرب!

قرية العقلاء المجانين

أراد الملك جون– الذي اشتهر في تاريخ إنجلترا بمنحه شعبه "الماجنا كرتا" أو المرسوم الأعظم الذي يعتبر أساس الحياة النيابية التي يتمتع بها الإنجليز اليوم– أراد أن ينشئ في مقاطعة نوتنجهام التي تقع في وسط إنجلترا كشكة للصيد تلحق به استراحة ملكية له ولأتباعه.

وعندما علم أبناء قرية جوتام "Gotham" التي تقع في تلك المقاطعة أن ذلك الكشك سيقام على مقربة من قريهم أعلنوا أنهم سيحولون دون إقامته بالقوة، ولعل ذلك كان لسببين: أولهما ما يحدثه موكب الملك من تلف لمزروعاتهم في أثناء سيره بالطرق الضيقة التي تربط قريهم بما حولها، وثانيهما أن أغلب تلك الطرق كانت طرقًا خاصة يملكها أبناء القرية وتجبى من السالكين فيها ضرائب مرور.

ولما كانت التقاليد في ذلك العهد قد جرت بأن أي طريق يمر به الملك يصبح طريقًا عامًا مجانيًا فقد خشي الأهالي ضياع جزء مضمون من إيراده.

ولم يشأ الملك أن يصطدم بأبناء تلك القرية، لأنه كان يخشى إشعال نار حرب أهلية بتحديه شعور هؤلاء القرويين ومحاولته استعمال القوة، ولكنه أراد أن يقف على سبب هذا التحدي، فأرسل بعض رجاله للاستفسار عن السبب. ولما عرف القوم بقرب قدوم رسل الملك عقدوا اجتماعًا من ذوي المشورة فيهم، وبعد بحث الموضوع أجمعوا على تجنب ما

يثير حفيظة الملك عليهم، ويجعله يضمر لهم العقاب العاجل أو الآجل، فقرروا أن يتظاهروا جميعًا بالجنون.

ولما أشرف رسل الملك على القرية وجدوا فريقًا من أهلها حول بركة ماء يحاولون إغراق ديك لأنه لا يبيض، فدهشوا! ولما ساروا قليلًا وجدوا فريقًا آخر كل اثنين من أفراده يجران عربة قد ركب فيها حصان سليم الجسم بادي الصحة، فازدادت دهشتهم! وعندما اقتربوا من القرية وجدوا فريقًا ثالثًا قد خلع أفراده ملابسهم إلا ما يستر عورتهم وعلقوها على شجرة تفاح لحمايتها من الريح! وبينما هم كذلك إذا بموكب صغير من أهالي القرية قد ربط كل منهم فأسه أو معوله أو مجرفته بحبل وأخذ يجرها خلفه فيثير الغبار!

ولم يكد الرسل يرون المنظر الأخير حتى بادروا بالعودة إلى الملك خشية أي يسيء القوم استعمال تلك الأدوات الزراعية. وعندما مثلوا بين يديه قصوا عليه ما شاهدوه. ولما انتهوا ضحك الملك وقال: "لا شك أن أهل تلك القرية جميعًا مجانين!"

ملك يتوج بسوار أمه

عندما تولى الملك جون عرش إنجلترا تشاءم الإنجليز لأن ماضيه لم يدع للتفاؤل محلًا، إذ أنه عندما عين للقيام بأعباء الحكم في إيرلندا لم تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلًا في معاملة الإيرلنديين، وقد حدث ما توقعه الإنجليز، فقد ذاقوا في أيام حكمه الشيء الكثير من الغدر والظلم في الداخل والهزائم في الخارج، حتى اتحدت جميع طبقات الأمة: الأشراف والشعب ورجال الدين، وأرغموه على منح العهد الأعظم "الماجناكرتا" سنة ١٢١٥ الذي يعتبر أساس الحقوق الدستورية التي يتمتع بها الشعب الإنجليزي الآن، وبه تقيدت سلطة الملك المطلقة وزادت حقوق الشعب.

ولم يكن جون حسن النية عند منحه هذا العهد، لأنه حاول أن يسترد ما تنازل عنه من حقوق فقام النزاع بينه وبين الأشراف ثانية.

وبينما كان يعبر نهر الواش– أحد أنهار شرق إنجلترا– انقلب القارب الذي حمل مجوهرات الملك وثروته وتاجه وسقطت كلها في الماء. وعندما بلغه النبأ اشتد ألمه فأراد أن ينسى ما أصابه فعمد إلى الخمر يحتسيها وإلى الطعام يلتهمه، ولكنه أفرط في كليهما، فوافته منيته وراح فريسة حزنه على الثروة الضائعة وضحية شراهته. وانتهى بذلك عهد أظلم ملوك إنجلترا. ولم يكد نبأ موته يصل إلى أسماع الأشراف حتى بادروا إلى المناداة بولده الصغير هنري ملكًا، وسنه لم تتجاوز التاسعة. ولما كان التاج قد فقد في نهر الواش كما قدمنا، فإن القوم لشدة اغتباطهم بما صار إليه أمر الملك السابق لم

ينتظروا حتى يصنع تاج للملك الحديد بل اتخذوا من سوار أمه الملكة تاجًا وضعوه على رأسه حتى تمت الطقوس الدينية والمدنية.

وتولى هنري الثالث العرش تحت وصاية أحد الأشراف حتى بلغ سن الرشد.

يرفت لأنه لم يضرب قنصلًا

في ضحى أحد أيام الأسبوع الأخير من شهر يوليو سنة ١٨٤٢ توجه قنصل سردينيا إلى جمرك بولاق ليشرف على تسلم رسالة بضائع وردت باسم أحد رعايا سردينيا. ولما علم أرسلان أغا أمين الجمرك بحضوره فقابله بما يليق بأمثاله من حفاوة وإجلال. ولما علم بالمهمة التي قدم القنصل لإنجازها اعتذر له بلياقة عن عدم استطاعته تلبية رغبته في إنقاص الرسوم المستحقة على البضائع الواردة من الخارج ما لم يكن ذلك بأمر خاص كتابي من سيد البلاد مُحَمَّد على باشا. فشمخ القنصل بأنفه واستنكف أن يخاطبه أمين الجمرك بتلك اللهجة الجافة، وأعاد الكرة ولكن بنغمة ظهر فيها التواضع ولين الجانب والتلويح بالمغريات المادية. ولكن أرسلان أغا أصر على موقفه الأول ولم يتزحزح عنه قيد شعرة.

عندئذ ثار القنصل، وزاد في هياجه الجو الخانق والحرارة التي لا تطاق في مثل تلك الأيام، ولم يتمكن من ضبط عواطفه، ولعله تذكر أن مُحَمَّد على باشا– وقد عاد إلى حكم مصر وسودانها نتيجة لألاعيب الدول الأوربية– أصبح يخشى بأس ممثليها في مصر ويعمل على التلطف في معاملتهم.. كل تلك العوامل مجتمعة دفعت بالقنصل إلى الاعتداء بالضرب على أرسلان أغا الموظف الأمين.

وزاد الطين بلة أن الياسقجي الذي رافق القنصل استطال على

الموظفين الذين حاولوا معاونة أمين الجمرك في تأدية واجبه، وحالوا دون استمرار القنصل في اعتدائه.

وانصرف القنصل غاضبًا لأنه لم يتمكن من أن يكيل لأرسلان أغا القدر الكافي من الضربات الذي تهدأ به ثورته ويسكن غضبه.

وعندما أقبل المساء كان حديث المصريين من أبناء القاهرة يدور حول ذلك الاعتداء المشين. وانقسم القوم إلى فريقين: فريق يرى أنه كان يجدر بأرسلان أغا أن يرد الاعتداء بمثله وليكن ما يكون، وفريق آخر يلتمس له العذر ويحاول تبرير موقفه إزاء ما أصابه من أجنبي كبير له مركزه الرسمي. ولكن الجميع استنكروا موقف الياسقجى الذي هو مصري أعارته الحكومة للقنصلية، وأخذوا يتساءلون ما موقف مُحَمَّد على باشا من هذا الحادث؟

ولم يطل انتظار القوم للنتيجة، فعندما وصل الأمر إلى مسامع عزيز مصر اهتم له. ولما ألم بالتفاصيل استفزته بشاعة الحادث وأقضت مضجعه زمنًا غير يسير، ولكنه عالجها بعزمه "مُحَمَّدية" وهمة "علوية"، فطلب من القنصل العام لسردينيا أن يخاطب ملكه شارل ألبرت (الحد الأعلى للملك فكتور عمانويل الثالث ملك إيطاليا الأسبق) لعزل ذلك القنصل وإبعاده عن مصر، كما لفت نظره إلى أن أية مكاتبة سترد لأية جهة حكومية موقعة عليها منه سيكون مصيرها الإهمال التام حتى ينفذ العزل والإبعاد.

أما الياسقجي فقد أمر مُحَمَّد على باشا بالقبض عليه وإحضاره إلى الديوان بالقلعة وضربه ٥٠٠ نبوت " أدبًا له على ما وقع منه في جمرك بولاق، وإفهامه أن القصد من إعطاء الياسقجية للقناصل هو لصيانتها

والمحافظة عليها وليس لمساعدتهم في فعل أفعال مغايرة كهذه.."

بقي أرسلان أغا الذي أصابه بدوره رشاش من غضب الباشا، فقد أمر برفته "جزاء على عدم محافظته على شرف وناموس الحكومة لقبوله الضرب وعدم مقابلة القنصل المذكور بالمثل".

وعزل القنصل، وضرب الياسقجى، وفصل أرسلان أغا، وعاد أبناء القاهرة يتحدثون معجبين بحزم مُحَمَّد على باشا مشيدين بموقفه.

زواج الخليج الناصري ببركة الرطلى!

شهدت مصر عصورًا كثرت فيها الأعياد وتعددت خلالها مواسم الأفراح العامة، ومرت بالمصريين قرون وهم لا يفرقون بين الأعياد القومية كوفاء النيل، والأعياد الدينية كعيد الفطر وعيد الأضحى ومولد النبي، وليلة الغطاس والنيروز وخميس العهد وعيد الشهيد.

وكثيرًا ما تغلبت الصبغة القومية على الأعياد الطائفية التي كان يقيمها أبناء إحدى الطائفتين، يسهم معهم فيها ويتمتع بمباهجها أبناء الطائفة الأخرى، بل إن بعض سلاطين مصر وولاتها كان يشترك بنفسه في حضور بعضها.

غير أن إسراف المصريين في إظهار الابتهاج بالأعياد، وما كان ينفق فيها من أهوال وما ينتشر خلالها من لهو ولعب يخرجان أحيانًا عن حدود الحياء والحشمة، فضلًا عن ارتكاب الجرائم واختلال الأمن، كل ذلك دفع بعض الولاة إلى التقليل منها بتحريم إقامة بعضها.

ولما كان المصريون لا تعوزه المقدرة على خلق المناسبات البهيجة، فقد لجأوا إلى الخلجان والبرك التي كانت منورة في ربوع القاهرة يقيمون فيها مباهجهم في نطاق ضيق لم يلبث أن اتسع. واخترع "أبناء الحظ" عيدة أسموه "زواج الخليج الناصري ببركة الرطلى".

كانت تلك البركة تقع وسط حي الطبالة (الفجالة الآن) وكان في

شرقيها زاوية فيها نحل كثير، وفيها شخص احترف صناعة الأرطال الحديد التي يزن بها البائعون، فسماها الناس بركة الرطلي نسبة إليه.

وكان الخليج الناصري، الذي حفره الناصر مُحَمَّد بن قلاوون (ويشغله الآن جزء كبير من شارع الملكة) يغذى تلك البركة بالمياه.

وقد اعتاد الناس الركوب في الزوارق الصغيرة الضيقة (وكانوا يسمونها الشخاتير، جمع شختور) والتنزه في تلك البركة يوميًا، فإذا بدأ موسم فيضان النيل أخذوا في إعداد حفل الزواج الذي أشرنا إليه.

وكان الحفل عادة يسهل باستئذان والى (محافظ) القاهرة في إقامته، ثم يختار سكان البيوت المطلة على الخليج وفد منهم على رأسه خاطب يرتدي حلة خاصة، ليقابل نقيب أعيان سكان البيوت المشرفة على البركة طالبًا منه الموافقة على خطوبة الخليج الناصري لبركة الرطلي! فإذا ما أعلن موافقته خرج الوفد معلنا الجماهير بتمام الخطبة، ويكون ذلك بأن يركب الخاطب ورفاقه الشخاتير ويسيروا بها في الخليج حتى يلجوا البركة فيطوفوا بأرجائها، وعندئذ تنطلق الزغاريد وتدوي صيحات الفرح. وفي اليوم الثالث إعلان الخطبة، حيث تنصب الأعلام وتعلق القناديل، ويقام في المساء حفل كبير لعقد الزواج على يد أكبر مأذوني القاهرة سنًا! فإذا ما انتهت كل تلك المقدمات ألقيت الحلوى والحناء وغيرها في البركة وبدأت المواكب تطوف خلال الأزقة والحارات.

وكانت النساء يخرجن سافرات الوجوه مزينات بأبهى حليهن وحللهن حاملات خرقة ملوثة بالدماء تمثيلًا لدم الفتاة البكر، كما كان بعضهن

يركبن الزوارق متجولات في أرجاء البركة!

ولما كان القاهريون يتجاوزون حدود اللياقة في ذلك اليوم، فقد أقيمت سلسلة على قنطرة المقسى، التي كانت تصل بين الخليج والبركة، لوقف عبور المراكب وإبطال تلك الموبقات!

وفي ذلك قال أحد شعراء العصر:

أطلقــت دمعــي علــى خلــيج　　　مـــن سلســـلوه فـــراح مقفـــل

مـــن رام مـــن دهـــرنا عجيبًـــا　　　فلينظـــر المطلـــق المسلســـل

وتحايل الناس بسبل شي إمعانًا في طقوسهم، ولم يعد في الإمكان ردعهم بسهولة، فلجأ طومان باي إلى منع السكني حول بركة الرطلى، فأضحت بيوتها خاوية زمن غير قليل، فرثي أحد الشعراء لحالها يومئذ وراح يندها بقصيدة طريفة جاء فيها:

على بركة الرطلى نوحوا وعددوا　　　لما حل فيها من نكال ومن خسر

محمد على باشا والأفاكة

في مثل هذه الأيام، منذ نحو ١٤٥ عامًا، كان المصريون جميعًا يتحدثون عن امرأة أفاكة نشأت في دمنهور وادعت أن عليها شيخًا من الجن يدعى الشيخ علي، إذا ما حضر أتى من المعجزات بما يحير الألباب. وقد ساعدها على سبك إفكها قدرتها على التكلم من البطن، الأمر الذي كان غريبة على الناس في ذلك العصر.

ولما رأت هذه المرأة نجاح أمرها في دمنهور عز عليها أن تحرم القاهرة بركاتها، فرحلت إليها في رفقة طائفة من المشعوذين، بعد أن سبقها دعاية واسعة.

وسرعان ما كان بيتها كعبة ذوي الحاجات، فهذه ترجو حملًا، وهذا يشكو مرضًا، وتلك رضاء الزوج، وذلك ينشد فيضًا من الرزق، وكان إلى جانب هؤلاء وأولئك آلاف من الجنود حشدوا لدفع عدوان الإنجليز على مصر سنة ١٨٠٧، وكلهم يطلب حجابًا يقيه رصاص العدو.

واستفحل أمر تلك المرأة، وأصبح حديث القوم ما تأتيه من معجزات في شفاء الأمراض وقضاء مختلف الآمال. وظلت الحال كذلك حتى انتهى أمرها إلى مُحَمَّد على باشا وكان حديث العهد بولاية الحكم.

كانت مشكلة معقدة تتطلب منه الحل السريع الحازم، لاسيما أنه علم أن كبار المماليك وبعض ذوي النفوذ والثراء ولفيف من يحيطون به يؤمنون

بما نسب إليها، يضاف إلى ذلك أن شفاعتها كانت مقبولة لديهم.

لذلك بادر عزيز مصر وبعث في طلبها. وذهب الرسل لإحضارها، وكانت وقتئذ في دار الياش أغا (رئيس خفر الليل). ولما أرادوا أخذها ثار الحاضرون، وفي مقدمتهم الباش أغا الذي أستضافها. وعاد الرسل خائبين!

زاد ذلك الحادث في أهمية تلك المرأة، فأصبحت لا تسير إلا راكبة جوادًا يحف بها الأتباع من المشعوذين ينشدون الأناشيد مجيدة لها وإشادة بذكرها. وضاعف ذلك في حنق مُحَمَّد على، فأصدر أمره– دون تنفيذه الإعدام– إلى رئيس الشرطة ليحضرها.

وقبيل الغروب كان مُحَمَّد على يدخن (شيشته) وفي حضرته بعض المقربين إليه، وإذا به يسمع جلبة، فلما استفسر عن سببها على أن المرأة قد حضرت، وبعد لحظات قصيرة كانت ماثلة أمامه، فابتدرها مُحَمَّد على باشا قائلًا:

– بعد إذنك، نريد أن نتكلم مع الشيخ الذي عليك.

– هذا غير ممكن إلا بالليل.

– ولماذا ؟

– لأن الشيخ ذهب منذ ساعة لأداة صلاة المغرب في مسجد سيدنا الحسين.

– أوا يغيب حتى يحضر؟

– كلا! سيكون هنا بعد صلاة العشاء.

– إذن ننتظره حتى يعود!

وانصرف الباشا ليتناول عشاءه تاركًا الشيخة مع جلائه، وأمر ألا تنصرف حتى يعود.

وبعد أن تعشى الباشا وصلى صلاة العشاء عاد إلى مجلسه وسألها:

– هل حضر الشيخ؟

– هل يمكننا أن نتكلم معه الآن؟

– نعم، ولكن بعد إطفاء جميع الأنوار.

– لك ذلك

وهنا أسر مُحَمَّد على باشا إلى بعض خدمه بإعداد مصابيح مضاءة يستحضرونها إذا ما تنحنح بصوت عال؛ ثم أمر بإطفاء الأنوار وقال للشيخة:

– استدع أستاذك!

وسرعان ما دوى في الحجرة صوت الشيخة وهي تنادي:

– يا شيخ على!!

وسمع الحاضرون صوتًا ضعيفًا كأنه خارج من أعماق الأرض يجيب النداء ويتمتم بكلمات خافتة إجابة عن الأسئلة التي كانت توجه إليه، ثم ازداد الصوت وضوحًا وكأنه يكلم كل فرد من الحاضرين في أذنه.

وأحس مُحَمَّد على بالمهابة والجلال الذي لقيته الشيخة في نفوس

الحاضرين فقال:

– آمنا أنك من الأولياء، فهل لنا أن نقبل يدك؟!

ولم تتردد الشيخة في تلبية هذه الرغبة فمدت إليه بأطراف أناملها فعاتبها محمَّد على قائلًا:

– "إننا نريد أن نقبل اليد كلها لتكون البركة أعظم!"، فانخدعت المرأة ومدت يدها، فقبض عليها بشدة وتنحنح بصوت عال. وفجأة عم النور أرجاء الحجرة في الوقت الذي كانت فيه الشيخة تحاول تخليص يدها من قبضة محمَّد على.

أدركت المرأة أن أمرها قد افتضح فركعت أمامه ولثمت قدميه وطلبت العفو، وهم محمَّد على أن يعفو عنها على ألا تعود لتلك الخزعبلات، ولكنه لاحظ موجة من التذمر تسود الحاضرين، وهم يتبادلون همسة عبارات الاستياء لما أتاه الباشا معتقدين أن ذلك يعد انتهاكًا لحرمة الشيخة، غافلين الضيق إدراكهم عن مغزى التماس المرأة العفو من محمَّد على.

ضاق صدر محمَّد على فصرخ فيهم:

– أيها المجانين الجهلاء، أفيخدعكم مثل هذا الكذب الظاهر؟

ثم وجه الحديث إلى رجال حرسه:

– ألقوا بهذه الأفاكة في النيل..

عندئذ ضج الحاضرون بالاحتجاج، وانصرف بعضهم ساخطًا ليبلغ الجماهير المنتظرة في الخارج ذلك النبأ المثير. ومرت لحظات رهيبة بعاهل

مصر الخالد، غير أنه واجه الموقف بلباقة وثبات جأش فقال:

– مم تضجون ولم تصخبون؟ إما أن هذه المرأة عليها شيخ حقيقة فهو لن يتخلى عنها، بل سينقذها من الغرق، وإما أنه لا شيخ عليها فتكون قد خدعتكم فلا يصيبها إلا ما هي به جديرة.

ولما كان هذا الكلام منطقيًا فقد آمن به القوم. وسيقت المرأة الشقية إلى النيل تحف بها المشاعل، وهي تصرخ وتولول، ولكن صرخاتها ضاعت وسط أصوات الشعب المتحمس لرؤية المعجزة الكبرى، وهي النجاة من الغرق بفضل: الشيخ علي".

وألقيت "الأفاكة" في اليم، ولبث جمهور عظيم من أتباعها على شاطئ النهر يترقبون خروجها من الماء– دون بلل– ولكن بلا جدوى.

وهدأت الفتنة.

وانصرف مُحَمَّد على إلى جيشه المحتشد بالقاهرة يعده للرحيل إلى الإسكندرية لإجلاء الإنجليز عنها.

مدينة تنشأ لتخليد ذكرى كلب

في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي كانت ويلز إمارة مستقلة يحكمها الأمير للويلين "L'weyn" وحدث أن خرج هذا الأمير للصيد في إحدى ضياعه، واصطحب معه زوجته وطفله، وأقام الجميع في منزل أنيق تحيط به الحاشية في خيام. واتفق ذات يوم أن غادر الأمير ورجاله محل إقامتهم الجديد جريًا وراء الثعالب، وتركوا الزوجة مع طفلها الرضيع وبرفقتها عدد قليل من الخدم.

ولما انتصف النهار ترقبت الزوجة عودة قرينها، فتركت طفلها في مهده ينعم بالنوم الهادي في حراسة الكلب "جيليرت"، وقصدت الخيام المجاورة لتشرف على ما أعده الخدم لطعام الغداء.

وفي أثناء غياب الأم تسرب ذئب إلى داخل المنزل وهم أن يفتك بالطفل، ولكنه لم يتمكن من أن يصيبه بضرر لأن الكلب انبرى إليه، وقام بين الاثنين صراع عنيف أطبق في نهايته. الكلب بفمه على عنق الذئب، لم يتركه حتى مات مختنقًا.

وارتمى الكلب إلى جوار الطفل ليسترد قواه بعد هذا الجهد العنيف.

كل هذا والأم تطوف بالخيام واحدة بعد أخرى، ولما اطمأنت إلى إعداد كل شيء هيت بالعودة إلى المنزل، وبينما هي في طريقها إليه لمحت زوجها وحاشيته قادمين، فوقفت تترقب وصوله، وما هي إلا لحظات حتى

كان الزوج أمامها. وبعد أن قبلها سألها عن طفلهما فأخبرته أنها تركته نائمة بالمنزل في حراسة الكلب جيليرت. وسارا كلاهما يتجاذبان أطراف الحديث، وأحس الكلب بقدومهما، وما كادا يخطوان الخطوة الأولى نحو الداخل حتى رأيا الكلب يخرج من الحجرة التي بها الطفل وقد لوثت الدماء الغزيرة فيه، فجن جنون الوالد، وظن أن الكلب قد فتك بفلذة كبده، فأسرع إلى خنجره واستله وأغمده في صدر الكلب وهو يحاول الوثوب ليحتضن سيده مهنئًا إياه بنجاة ابنه، وسقط الكلب يعوي من الألم. وبينما الأب يجهز على الكلب إذا به يسمع هو وزوجته بكاء طفلهما داخل حجرته وقد أيقظه عواء الكلب، فأسرعا إليه ووجداه على خير ما يتمنيان من صحة وسلامة.

وبينما الوالد يقلب أنظاره في أركان الحجرة إذا به يجد ذئبة قد نزفت دماؤه وبرزت عيناه فأدرك مقدار الخطأ الذي ارتكبه نحو كلبه الوفي.

ولم يجد الأمير تاويلين ما يعبر به عن شعوره نحو كلبه سوى أن حمله بين يديه ودفنه بجوار شجرة قريبة من الكوخ، ونصب على القبر لوحًا رخاميًا جميلًا نقشت عليه تفاصيل الحادث. وأقام إلى جوانب القبر قصرًا فخمًا له ولزوجته ولابنه، كما بنى مساكن كثيرة لأتباعه، وأطلق على المدينة الجديدة اسم بدجيليرت "**Beddgelert**"، أي قبر جيلبرت. وهي تقع بمقاطعة كارنار فونشكير في شمال ويلز.

وبعد أعوام قلائل اختلف هذا الأمير مع إدوارد الأول ملك إنجلترا، وقامت بينهما حرب انتهت بمصرع للويلين وضم ويلز لإنجلترا ولقب ولي

عهد إنجلترا بلقب "أمير ويلز"، وأخذ الملك إدوارد الأول وأتباعه يمحون آثار أمير ويلز عدوهم السابق، فحطموا اللوح التذكاري، وهدموا القصر، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجلوا الناس عن تلك المدينة التي بقيت حتى الآن يروى أهلها قصة إنشائها. ومن الطريف أن أهل هذه المدينة شديدو العطف على الكلاب، بل إنهم ليؤثروها على أنفسهم وعلى أبنائهم بمختلف مظاهر الترف، وقلما يجد الزائر لها بيتا يخلو من كلب. ألم تشيد المدينة نفسها تخليدًا لذكرى كلب؟!

الإوز الذي أنقذ روما

في أواخر مايو سنة ١٩٤٠ أظلمت الدنيا في وجه بريطانيا وحلفائها إذ أن تقدم الأمان في فرنسا سار بخطى سريعة، وحدثت في صفوف الجيوش الفرنسية والبريطانية ثغرات حال تدفق الجيوش الألمانية دون سدها، ثم ازدادت الحالة سوء باستسلام ملك البلجيك، وارتداد البريطانيين إلى دنكرك، ثم الجلاء عنها، وأخيرًا بدأت معركة فرنسا وتساقطت مدنها واحدة بعد أخرى.

واجتمعت وزارة رينو الفرنسية لتدرس الموقف على ضوء الحقائق المرة؛ وفي جو تشبع بالأسى واليأس اندفع المارشال فيجان "**Weygand**" يشرح الموقف من الناحية العسكرية مبينًا ألا فائدة من المقاومة. وفي خلال تحمسه لفكرة التسليم قاطعه المسيو كامبينشي "**Campinchi**" وزير البحرية عدة مرات مؤيدا فكرة المقاومة والدفاع مع إنجلترا. غير أن فيجان أجابه في سخرية لاذعة وتهكم صارخ: "يا عزيزي كامبينشى"! لقد أنقذ الأوز الكابيتول مرة واحدة فقط".

وانتصر الرأي الذي جنح إلى التسليم، وانتهت الحوادث على الوجه الذي لا يزال ماثلًا للأذهان.

والآن ما هي قصة الإوز؟

لم يكن الإيطاليون شعبًا موحدًا عندما أنشئت مدينة روما سنة ٧٠٣

ق. م، بل لبثت الانقسامات والحروب تحول دون اتحاد أجزائها الكبرى، حتى إن روما نفسها عانت من منافسة المدن الأخرى الشيء الكثير. وكان أكبر ما تعرضت له هو هجوم الغاليين (وهم أسلاف الفرنسيين والبلجيكيين وشعوب ألمانيا الجنوبية) الذين زحفوا من وراء الألب وأقاموا في السهول الشمالية لإيطاليا ثم اتجهوا نحو الجنوب وحاصروا مدينة كلوزيم "Clusium" فطلب أهلها معونة روما، أو على الأقل وساطتها، في دفع هذا البلاء. فقبلت روما الرجاء وأرسلت ثلاثة مندوبين من أعضاء مجلس الشيوخ للتوسط في وقف الحرب. ولما اجتمع المندوبون ببرينس "Brennus" زعيم الغاليين وأدلوا إليه بمهمتهم أجابهم برينس: "إن الحق لمن بيده القوة، وإن روما نفسها ضمت بقوتها بلادة لا حق لها فيها، وهؤلاء أبناء كلوزيم لا يرضون بتسليم مدينتهم لنا، وليس لديهم من أبنائهم ما يملأ ربوعها فضلًا عن أراضيهم التي لا يجدون لها من يفلحها". وانصرف المندوبون ليسمعوا ما يقوله أبناء كلوزيم. وما كادوا يدخلونها حتى نسوا المهمة التي جاءوا من أجلها، ودفعهم عواطفهم إلى تزعم المدافعين عن كلوزيم في إحدى كراتهم على المهاجمين الغاليين. وفي خلال القتال صرع أحد الرومانيين جنديًا غاليًا وشوهد وهو يجرده من سلاحه.

أثار هذا العمل استياء برينس فأرسل مندوبه يشكو المجلس الشيوخ بروما ما فعله مبعوثوه، فلم يكترث المجلس لشكواه ولم يعتذر عما حدث، بل إن الرومانيين رفعوا مندوبيهم الثلاثة إلى مراتب الأشراف.

كان رد برينس على ذلك أن رفع الحصار عن كلوزيم واتجه صوب روما، ولم يجد في طريقه مقاومة تذكر من البلاد التي مر بها، كما أنه من

ناحيته مر بها بسلام دون أن يصيبها منه ضرر يذكر ليتفرغ للانتقام، حتى إذا ما قارب روما واجه من أبنائها جيشه عدده أربعون ألفة استطاع أن يهزمه بعد قتال عنيف.

انقسم الرومانيون على أنفسهم فبعضهم رأى القتال حتى الموت، وبعضهم الآخر رأى أن يلوذ بالهرب إلى المدن المجاورة. وإلى جانب هؤلاء جميعًا قرر الشيوخ والكهنة أن يظلوا بالمدينة ليقدموا أنفسهم قربانا للوطن، فارتدوا ملابسهم الرسمية والدينية ولبثوا ينتظرون في الفوروم "دار الندوة"".

انتصر الغاليون ولكنهم أضاعوا ثمرة انتصاره، إذ أنهم تركوا جنودهم يومين كاملين ينهبون ويسلبون في معسكر الرومانيين، ولو أنهم عجلوا بجني ثمرة انتصارهم واتجهوا نحو روما لاستطاعوا احتلال الكابيتول:

وفي اليوم الثالث سار برينس على رأس الغاليين صوب روما فلما صار أمامها اندهش لما رآه، فقد رأى الأبواب جميعها مفتوحة لاستقباله، والأسوار دون حماية أو تحصين، فارتاب في الأمر. ولما تأكد ألا مكيدة هنالك اتجه صوب الفورم، وكانت الطرق خالية والسكون مستتبًا، ولطا دخلوا الفورم وجدوا الشيوخ جالسين في صمت تام وكأن على رؤوسهم الطير، وقد جلسوا تحيط بهم المهابة والجلال، حتى خيل للغاليين أنهم الأصنام التي يعبدها الرومان أو التماثيل التي يسجدون لهما، فسرت في قلوب الغزاة الرهبة والخوف، إلى أن قطع ذلك السكون العميق حادث تافه، إذ تجاسر أحد الجنود الغاليين وأمسك بذقن بابيريس "**Papyruis**" أحد الشيوخ. وتلك إهانة لم يحتملها الشيخ الوقور، فهوى بعصاه

الأبنوسية على رأس ذلك الغالي الجريء فسقط على الأرض، وكانت تلك الضربة بدء مذبحة، إذ أعمل فيهم الغاليون سيوفهم وأجهزوا عليهم جميعًا دون اكتراث لمكانتهم أو تقدير لشيخوختهم، واستمروا ثلاثة أيام يجوسون خلال المدينة ليسفكوا دماء من بها دون اعتبار للسن أو الجنس. وإذ تم لهم ذلك أوقدوا النار فيها، وذلك في عام **٣٩٠** ق. م.

تعلقت أمال الرومانيين المهاجرين بالكابيتول بعد أن قضى على روما، ولم يبق أمام برينس إلا الاستيلاء على ذلك الحصن، فأرسل رسله تهدد بالتسليم العاجل أو الحصار القاتل، فرفض الرومانيون الإذعان للوعيد، فحاصر برينس الحصن، واستعمل أقصى ما يستطيع من فنون حربية ليحول دون تسرب إمداد أو دون إليه ليضطر حاميته إلى التسليم.

وفهمت الحامية ما رمي إليه برينس فألقوا إليه من أعلى الأسوار بشيء من الخبز، وكان لذلك معنى لم يفت زعيم الغاليين، فدب اليأس إلى قلبه أيام قليلة، حتى جاءه نفر من رجاله ينبئونه أنهم وجدوا آثار أقدام تؤدي إلى صخرة يستطيعون منها مفاجأة الكابيتول.

كانت آثار الأقدام التي عثروا عليها الروماني جاء إلى الحصن يحمل رسالة المهاجرين إلى إخوانهم بالحصن- رسالة التشجيع على الاستمرار في الدفاع وانتخاب ديكتاتور لروما— وعاد الرسول يحمل بشرى الثبات في الدفاع والإجماع على انتخاب كاميليسا "**Camilles**" ديكتاتورًا لروما. صمم برينس على مفاجأة الكابيتول بطريق تلك الصخرة فاختيرت طائفة من أبسل الجنود وأصليهم عودة ليقوموا بتلك المهمة، حتى إذا ما صاروا

داخل الحصن سهلوا على الغزاة ولوجه، فتحايل النفر المعهود إليهم بتلك المهمة على تنفيذها بطريقة التزموا فيها منتهى السكينة، فلم يفطن إلى حركاهم من بداخل الحصن، حتى إذا ما وصلت طليعتهم للأسوار اكتملت عناصر المفاجأة، إذ كان الحرس الروماني في نوم عميق، وحتى كلاب الحراسة نفسها لم تثرها تلك الحركات الغريبة فقابلتها بهدوء عجيب.

أصبح النصر مسألة دقائق بل ثوان، وإذا بإوز[1] يصيح، فيهب جنود الكابيتول مذعورين ويدركون ما حاق بهم من خطر، فيبادر كل منهم إلى سلاحه، وجرى الجميع نحو الأسوار فأودوا بطلائع العدو وأجلوه عنها.

الرومانيون يردون الغاليين عن الكابيتول

تحطمت آمال الغاليين، وبدأ القلق يساوره، في الوقت الذي أراد فيه الرومانيون التخلص منهم. وتلاقت الرغبتان، وجرت مفاوضات اتفق فيها الطرفان على أن يجلو الغاليون لقاء مائة رطل ذهبية، وعندما بدأت ساعة التنفيذ لاحظ الرومانيون أن الغاليين يزنون بأثقال أكثر مما اتفقوا عليه فاحتجوا، فما كان من برينس إلا أن أتى بسيفه في كفة الأثقال ليزيدها ثقلا وقال: "ويل للمغلوب!"، وقامت مناقشة حادة أدركها كاميللس الذي انتخب ديكتاتورًا لروما وكان قد جاء لإنقاذ الكابيتول على رأس جيش كبير، فلما وقف على سبب النقاش أمر بأن يعاد الذهب إلى الكابيتول قائلًا: "نحن لا نفتدي وطننا بالذهب بل بالحديد، وإني المسئول عن عقد

()١ كان هذا الإوز مع قربانًا للإلهة "**June**" زوجة وأخت جوبيتر "**Jupiter**" وملكة السماء وحامية الزواج عند الرومان.

الصلح وسأشتريه بسيفي وحده". وقامت الحرب من جديد وانتهت بجلاء الغاليين وانتصرت روما أخيرًا.

لم تنته القصة بعد!

جلا الغاليون منهزمين، وبقي أن يحتفي الرومانيون بالنصر، فبدأوا بزعيم الحراس فعاقبوه على إهماله الإشراف الدقيق على حراسة الكابيتول، فأتي به من أعلى الحصن.

أما الإوزات فتمجيدًا لصراخها وتقديرًا لصياحها أقيمت المواكب لها واختيرت إحداها وزينت بأبهى زينة ووضعت في محنة طيف بها في أنحاء روما، وأطلق اسمها على الخطوة العسكرية المعروفة!

أما الكلاب فقد لقيت جزاء إهمالها في حراستها وغفلتها عن تأدية واجباتها، ولذا اعتاد الرومانيون أن ينتخبوا كل عام كلبا يقتلونه على خازوق من خشب البيلسان!!

انتصار الشعب

تعتبر الحياة النيابية في مصر حديثة إذا قيست بتاريخنا الطويل المجيد؛ وهي في إنجلترا التي تعد أعرق الأمم[1] من الناحية الدستورية لا تتجاوز القرون السبعة إلا بقليل؛ وقد كافحت إنجلترا جل تلك الفترة لتدعيم سلطة الشعب. وقد انتقلت الروح النيابية إلى سائر الأمم بالتدريج، حتى إذا ما تولى عرش مصر مُحَمَّد على باشا أدخل نظام المشورة. ولم يكن المصريون يومئذ ليدركوا مهمة المجالس النيابية، وهذا لا نكون مغالين إذا قلنا إن مجالس المشورة في عهد عزيز مصر لم تكن أكثر من مدارس يتعلم فيها رجال الوالي طرق إدارة البلاد وكيفية تدبير الأمور العامة.

فلما جاء عصر إسماعيل رأى ذلك العاهل الكبير أن يضيف إلى نواحي إصلاحاته الشاملة الناحية الدستورية، فأصدر في نوفمبر سنة ١٨٦٤ قرارًا بتكوين مجلس شورى النواب الذي افتتحه في نوفمبر سنة ١٨٦٦؛ ولعل من الحقائق المجهولة هذه هي أول خطوة دستورية في سبيل اشتراك المصريين في إدارة شئون البلاد، ومهما قيل عن استئثار إسماعيل بالسلطة. فلا ريب أن تلك المحاولة من جانبه تدل بوضوح على معرفته لطبيعة الأمر وضرورة مسايرة التطور الاجتماعي. وحسب إسماعيل فخرًا أنه أنشأ ذلك المجلس مختارة لا مكرها، كما كان الشأن في غالب أمم

()١ أن البرلمان الأيسلندي والبرلمان الهنغاري أقدم من البرلمان البريطاني وأن أولها تجاوز عمره ألف عام.

الأرض. ولا يلام إسماعيل إذ كانت ساقاه في هذا المجلس لم تقويا على حمله في أول عهده، فقد كان أشبه بالطفل يتعثر حتى يقوي ويشتد.

وليس أدل على مدى سوء فهم المصريين للنظام النيابي حينئذ من أن الكثيرين منهم كانوا يخشون أن يكونوا نوابًا حتى لا يغضبوا المدير أو رجال الحكومة في أمر من الأمور، حتى إن الحكومة في ذلك العهد كانت ترغم الناس إرغامًا على قبول النيابة، فإذا ما أصبحوا نوابًا فهموا أن مهمتهم هي الموافقة على طول الخط.

يقول بعض الرواة إن أحد نظار إسماعيل أراد أن يفهم المجلس أن العادة جرت بأن يجلس المعارضون على اليسار، فهرع إلى اليمين من كانوا في اليسار قائلين: "إننا كلنا عبيد أفندينا، فكيف نكون معارضين لحكومته؟!".

ولكن هذا المجلس في آخر عهد إسماعيل، عندما اكتمل مرانه وفهم واجبه وألم بمسؤوليته، أظهر مقدرة وحزما وحرصًا على تدعيم قواعد الحكم الدستوري، إذ لم يفرط في واجبه أو يتجاهل حقوقه إزاء محاولة الحكومة الافتئات على سلطانه، وبلغ من تضامن الأعضاء على تنفيذ إرادتهم أنهم هاجموا الحكومة ورابطوا بدارهم حتى أقيلت الحكومة التي تحدتهم.

حدث هذا في جلسة شورى النواب المنعقد يوم الخميس ٢٧ مارس سنة ١٨٧٩ وهاك نص محضرها:

"فتح الجلسة سعادة رئيس المجلس وقال:

عطوفتلو أفندم رياض باشا ناظر الداخلية شرف الجلسة يحمل أمرًا

عاليًا سيتفضل بتلاوته على حضراتكم.

قال عطوفتلو رياض باشا:

قبل أن أتلو على حضراتكم الأمر العالي الصادر من مولاي ومولاكم أقدم لحضراتكم جزيل تشكرات الحكومة على ما أبداه المجلس من النشاط في نظر المسائل التي عرضت عليه.

وإني أتلو على حضراتكم الأمر العالي المشار إليه:

"نحن خديوي مصر بناء على ما حواه البند التاسع من لائحة مجلس شورى. النواب من أن مدة توليتكم عن الأهالي تكون ثلاث سنوات وما عرض علينا من مجلس النظار من أن المدة قد انقضت أصدرنا أمرنا بانفضاض المجلس وكلفنا ناظر داخليتنا بتنفيذ ذلك

إسماعيل

تحريرًا بمحروسة مصر في ٢٢ مارس سنة ١٨٧٩ بأمر الحضرة الفخمة الخديوية

رئيس مجلس الوزراء توفيق

ناظر الداخلية رياض

وإني أختم كلامي بانفضاضكم اليوم، وتقدم لكم الحكومة تشكراتها وثناءها على ما قمتم به من المآثر الحميدة في خدمة البلاد.

عبد السلام المويلحي بك: لا أرى معي لتشكرات الحكومة لنا، فإننا لم نقم بعمل إلى الآن يكون له ولو شبه فائدة قد عادت أو ستعود على

البلاد، فما هي المآثر التي سنتركها وراءنا لتشكرنا عليها الحكومة فيما لو فرضنا المستحيل وانفض المجلس.

عطوفتلو رياض باشا: مستحيل ينفض المجلس؟! ماذا تقول حضرتك؟ مستحيل فض المجلس؟ كيفيكون فض المجلس مستحيلًا بعد أمر خديوينا المعظم؟ هل حضرتك فاهم جيدًا قيمة مسئولية ما تقوله الآن؟

عبد السلام بك المويلحي: نعم أنا فاهم، وفاهم جيدًا جدًا ما قلته، ومقدر مسؤولية ما أقوله تمامًا.

عطوفتلو رياض باشا: هل حضرتك تتكلم عن نفسك فقط؟ وهل إخوانك يوافقون على هذا الكلام؟ ما أظن أن حضراتهم يوافقونك على ذلك مطلقًا.

محمود بك العطار سر تجار مصر: موافقون البك المويلحي على ما قاله يا عطوفة الناظر...

عثمان أفندي غزالي: أنا والله موافق المويلحي بك بجوارحي على أقواله وأفكاره.

عبد الشهيد أفندي بطرس: أوافق عبد السلام بك المويلحي على ما قاله وما سيقوله مقدمة.

عطوفتلو رياض باشا: إذن أنتم جميعا عصاة!

عبد السلام بك المويلحي: حلمك يا باشا. لا تغضب سريعًا، والآن الحمد لله قد ظهر لعطوفتك موافقة إخواني لأقوالي، وهم يعرفون كلهم

مقدار المسؤولية التي قلت عنها عطوفتك ويقدرونها حق تقديرها...

فاعلم يا عطوفة الباشا أن من الغريب أن تحمل لنا أمرًا عاليًا اليوم يقضي بفض المجلس، وهذا الأمر العالي مبني على غلطة جوهرية فاضحة، لأنها في الواقع مغالطة مزرية من الحكومة السنية لمجلس نواب أمتها. وهي كيف جاز للحكومة أن تبني الأمر العالي بفض المجلس على أن مدة انعقاده– وهي ثلاث سنوات– قد انتهت؟ مع أن الحكومة تعلم والنواب يعلمون جميعًا أن تاريخ الديكريتو الذي صدر بانعقاد هذا المجلس وبتعيين سعادة أحمد باشا رشيد هذا رئيسًا للمجلس هو ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٨، فلم يمض إذن على دور المجلس سوي سنة وثلاثة أشهر، فكيف أصبحت هذه المدة على حساب الحكومة ثلاث سنوات؟!

عطوفتلو رياض باشا: أما حساب غريب وعجيب يا حضرة النائب. إن مدة انعقاد المجلس هي من بدء النطق الكريم الذي صدر من مولانا الخديوي المعظم في حفلة طنطا[1] فاحسب حضرتك تجد أن المدة فاتت وزيادة.

عبد السلام بك المويلحي: ما هذا الكلام يا عطوفة الباشا؟ حفلة طنطا؟ وما هي حفلة طنطا؟ وما لنا وحفلة طنطا الآن؟ وما هو مقدار رسمية حفلة طنطا؟ وما قيل فيها من خطب ردًا على ما فاه به سمو الخديوي المحبوب في تلك العزومة لحضرات المدعوين إليها؟!

إن الغريب والعجيب هو حساب الحكومة لا حسابنا.. عزومة شرفها

()١ ورد ذكرها في الوقائع المصرية بالعدد ٦٧٢ في ٢٧ أغسطس ١٨٧٩.

سمو الجناب العالي وتناول الطعام مع المدعوين إليها وقيل فيها كلام وخطب من سموه ومن المدعوين ولم يدون منه حرف واحد على الإطلاق لا بطريقة رسمية وشبه رسمية تفيد أن كلام سموه فيها كان أمرًا عاليًا له قيمة القانون ويؤثر في مدة انعقاد مجلس شورى النواب وتحديد تلك المدة؟! أليس إذن هذا الكلام عجيب وغريب من عطوفتكم لا منا؟؟

إبراهيم أفندى الوكيل: عجيب جدًا.. بالله اتركوا عزومة طنطا وما حصل فيها وخلوا على رأي المثل العامي (زكايب الهم مقفولة)!

عطوفتك رياض باشا: يعنى حضراتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم؟ يعنى حضراتكم الآن بعمائمكم وجيبكم مثل نواب أوربا وأمريكا؟

أحمد على العديسي بك: ياباشا أنت الآن شتمتنا.. ما هذا الكلام؟ يعنى عطوفتك شتمت نواب أمتك التي تعطيك أنت وغيرك مرتباتكم الشهرية.

عبد الشهيد أفندي بطرس: أنا أعتبر هذه العبارات إهانة من ناظر الداخلية للمجلس وأطلب إثباتها في المحضر؛ وأقول لعطوفته إن كلامه هذا وقاحة، وإن المجلس لا يقبل من ناظر الداخلية هذه الوقاحة بل يردها له.

شيخ العرب أحمد الصوفاني: أوافق حضرة العضو على رد هذه الإهانة للناظر، وأطلب من المجلس أن ينظرها فيها بعد ليحاسب عطوفته عليها حساب عسيرة حتى يعلم أن في البلاد أمة حية ولها نواب أحياء يدافعون عن كرامتها وكرامتهم.

عبد السلام بلك المويلحي: أسمعت ياباشا ؟! أرأيت عاقبة تسرع عطوفتك في الكلام وعدم ضبطاك عواطفك كما قلت لك في أول كلامي؟ ياباشا اعلم أن المسألة ليست مسألة زي وثياب بل المسألة مسألة نواب لهم عقول تفهم جيدًا رغائب الأمة التي أنابتهم عنها واعلم ياباشا أن أهل وطنك ليسوا بأقل شعورًا بما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات مثل الأمم الأخرى التي هي في الواقع أقل منا كثيرًا في المكانة المالية والعمرانية كصربيا وبلغاريا وغيرهما".

وهنا وجه الأعضاء كلامًا شديدًا إلى رياض باشا الذي اضطر للانسحاب.

ثم طلب عبد السلام بك المويلحي من هيئة المجلس قرارا باستمرار الجلسة منعقدة ليل نهار، فوافق المجلس بالإجماع بما فيهم سعادة الرئيس على هذا الطلب، وأستمر وجود الأعضاء بالمجلس وقاعاته بلا انقطاع، واتفقوا على أن يكون ثلث الأعضاء، بالتناوب يبقى في المجلس ليلًا ويبيت به ويحضر بالنهار سائر الأعضاء وتستمر الجلسة منعقدة.

وقد اتفق حضراتهم على إحضار طعام العشاء ليلًا لمن كان عليهم الدور من إخوانهم في المبيت، وقد بدأ إبراهيم بك الخيار بإحضار الطعام جميعه وكان كثيرة وفاخرة في الليلة الأولى.

وبعد ذلك استقالت الوزارة.

ووصف المحضر بعد ذلك ما كان من تولى شريف باشا الحكيم وقال:

"وفي يوم ١٠ أبريل سنة ١٨٧٩ الموافق ١٨ ربيع آخر سنة ١٢٩٦

تلا سعادة رئيس المجلس على حضرات الأعضاء خطابًا من دولة وزير الداخلية ونصه حرف كما ورد في الوقائع المصرية الصادرة في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦":

"ولو أنه كان تقرر مجلس النظار السابق عن انفضاض مجلس شورى النواب لانقضاء مدته حسب ما تحرر لسعادتكم في ربيع آخر بنمرة ٣١ لكن حيث أن مقتضيات الأحوال مستلزمة إبقاءه للمذاكرة والمفاوضة معه في بعض مواد مهمة قد تقرر مجلس النظار الذي تشكل الآن استمراره، واقتضى تحريره لسعادتكم للإحاطة بذلك وتفهيم حضرات أعضائه بعدم الانصراف"

إمضاء: شريف

الشاي يحرر الولايات المتحدة

كانت لإنجلترا على الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية مستعمرات كثيرة أسس أغلبها البروتستانت الذين نزحوا من إنجلترا فرارا من الاضطهاد الديني أيام أسرة إستيوارت (١٦٠٣- ١٦٤٩ م) ثم من (١٦٦٠- ١٧١٤م) ومن الاضطهاد السياسي أيام كرمويل (١٩٦٩- ١٦٥٨ م) ثم أخذ الأوربيون يؤمون أمريكا، وبدأ سيل الهجرة منذ عام ١٦٢٠، فقد جذبتهم الأرض الغربية الجديدة كما يجذب المغناطيس برادة الحديد.

ولكن أمريكا لم تصبح يومئذ خليط من الأجناس كماصارت الحال فيما بعد، إذ كان السواد الأعظم من سكانها لا يزال إنجليزي الأصل يفخر بالانتساب إلى إنجلترا، ولا يجد غضاضة في أن يعمل مع جاره الفرنسي أو الهولندي في سبيل استغلال تلك الأراضي البكر، كما لايأنف من أن يصاهره ويرتبط معه برباط وثيق.

وهنالك عامل مهم عمل على ربطهم حدده أحد المهاجرين الفرنسيين سنة ١٧٦٩ بقوله: "ليس

لنا أمراء نكد ونجوع ونبذل الدماء من أجلهم، فالمرء هنا حر كما يجب أن يكون!"

لقد كانوا إذن يعشقون الحرية في جميع صورها: حرية العقائد والأديان، لا يسأل الواحد منهم عن ماضيه، بل يحاسب على مقدرته في الإنشاء والتمهيد والتعمير، كما كانت لديهم خبرة ومران على الحكم الذاتي. إذ كان لكل مستعمرة مجلس نيابي يقرر شئونها الداخلية ويفرض الضرائب، ولم يكن الإنجليز إلا ممثلين للتاج البريطاني لا يتدخلون في الشئون الداخلية لتلك المستعمرات.

وحدث في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أن نشبت الحرب المعروفة باسم حرب السنوات السبع بين فرنسا وإنجلترا (١٧٦٣-١٧٥٦)، وخرجت الأخيرة منها مثقلة بالأعباء المالية التي تكبدتها بسبب تلك الحروب.

لم يجد الإنجليز وسيلة لسد العجز سوى الضغط الاقتصادي بمختلف الطرق على المستعمرات للحصول على أقصى ما يمكن من مال، فبدأوا بتقييد التجارة في المستعمرات الأمريكية وغيرها بقيود شديدة، منها تحتم استيراد جميع الحاجيات التي تفتقر إليها تلك المستعمرات من إنجلترا، وضرورة إرسال جميع الصادرات إلى إنجلترا وحدها دون غيرها.

ولكن الأمريكيين الذين أسهموا في تلك الحرب طوعة برجالهم وأموالهم لم يرغبوا في دفع ضرائب جديدة، فعدوا هذا الإجراء من جانب إنجلترا أمرا شاذا ... يضاف إلى ذلك قانون الدمغة الذي قضى بوضع طوابع دمغة تتراوح فئاتها بين نصف بي (ملمان) وثمانين شلنا (نحو أربع جنيهات) على الجرائد والنشرات والرخص والفواتير التجارية وعقود الإيجار والسندات

القضائية وأمثال ذلك من وسائل المعاملة، واعتبر عدم لصق تلك الطوابع خرقة واضحة للقانون.

ولكن الأمريكيين عدوا هذا القانون إجراء غير عادل قابلوه بحرق تلك الطوابع وإجبار القائمين على بيعها بالتنحى عن وظائفهم، فأضطر الإنجليز لإلغاء ذلك القانون.

وكان لهذا التقهقر من جانب إنجلترا أثره في الأمريكيين، إذ بدأوا يتحدثون عن الحرية والاستقلال، وأخذت هاتان الكلمتان تسريان إلى القلوب وتهزان أعطاف الأمريكيين حتى رددهما ضربات الطبول في أرجاء تلك البلاد، وأخذ الناس يتدربون خفية على أساليب القتال.

ورأت إنجلترا بعد فشل قانون الدمغة أن تلجأ إلى وسيلة أخرى.

وحدث في سنة ١٧٧٣ أن تكدست لدى شركة الهند الشرقية كميات كبيرة من الشاي، فأرادت الحكومة الإنجليزية انتهاز الفرصة وضرب عصفورين بحجر واحد، فتساعد الشركة وتحصل على ضريبة جديدة.

وما كاد النبأ يترامي إلى الأمريكيين حتى احتجوا، ولكن إنجلترا لم تصخ لاحتجاجهم لأنها لم تكن تدرك تمامًا شعور الأمريكيين ومبلغ استعدادهم لذلك، إذ لم يستمع رجالها لدقات طبول التدريب العسكرى، ولم يفطنوا لقرب هبوب العاصفة، لأنهم نظروا لأبناء المستعمرات كصبيان لم يبلغوا الحلم، وليسوا أهلًا لإبداء رأي أو إثارة معارضة في أمر من الأمور، في حين كان الأمريكيون رجالًا كاملي الرجولة.

وبيت الأمريكيون أمرهم فما كادت السفن الحاملة لشحنات الشاي تصل لميناءي نيويورك وفيلادفيا حتى اضطرها الشعب إلى الإقلاع دون تفريغ حمولتها.

أما أبناء بوسطن فقد أضمروا أمرا آخر، وتجاوزت المقاومة حدا أبعد مما جرى في الميناءين السابقين، إذ كانفي انتظار الشاى خمسون من الأمريكيين البواسل بقيادة صموئيل آدمز. وفي ليلة ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٣ هاجر السفن هؤلاء الأبطال وهم متنكرون في ثياب الهنود الحمر، ورموا بالشاي في البحر.

وتنفس الأمريكيون الصعداء، وشعروا بشيء كثير من الارتياح. ولكن الحكومة الإنجليزية اعتبرت ذلك تحديًا لسلطتها.

وغضب الملك جورج الثالث، وحاول بعض المعتدلين أمثال وليام بت حض الحكومة على اتباع سياسة الاعتدال بدلًا من أساليب العنف، ولكن أم الملك جورج قالت له: "كن ملكًا يا جورج!" فما كان منه إلا اندفع مع الحكومة في إنزال القصاص بالثائرين، وصدرت عدة قوانين صارمة فيها كثير من الحد من حرية الأمريكيين، كما تقرر إقفال ميناء بوسطن حتى يؤدى ثمن الشاي التالف.

أجاب الشعب الأمريكي على ذلك بعقد الاجتماعات علنًا، وأخذت الصحف تهاجم تلك القوانين الجائرة، وعقدت بضعة مؤتمرات عامة بين المستعمرات أعلن فيها الأمريكيون حقهم في سن الضرائب، وطلبوا إبعاد الجنود الإنجليزية، وقرروا قطع العلاقات التجارية بين أمريكا وإنجلترا،

واستفحل النزاع، وشددت الحكومة الإنجليزية النكير على الروح الثورية، وأطات الإنجليز أول رصاصة في ١٩ أبريل سنة ١٧٧٥، فأجابهم الأمريكيون. وهكذا بدأت الثورة وحرت معارك دامية بين الفريقين، واجتمعت كلمة المستعمرات على إسناد قيادة جيش التحرير إلى واشنطن.

واستطاع هذا البطل الخالد، برغم ما صادفه من مشاكل جمة أن يحرز انتصارات كثيرة وفي يوم ٤ يوليو سنة ١٧٧٦ أعلن الأمريكيون استقلال، وأخذت الحرب بعد ذلك التاريخ طريقًا شاقًا كانت نقطة التحول فيه هزيمة الإنجليز في موقعة سارا توجا (بولاية نيويورك)، ولازم التوفيق الأمريكيين، وشعر الإنجليز بالفشل القريب، فحاولوا ترضية الثائرين بمختلف الوسائل، ولكن الأمريكيين رفضوا كل العروض، وتوالت الإمداد من بعض الدول الأوربية، حتى اضطر الإنجليز للتسليم يوم ١٩ أكتوبر سينه ١٧٨١ في بوركتون "Yorktown" بولاية فرجنيا. وأمضيت معاهدة السلع التمهيدية في نوفمبر سنة ١٧٨٢، ثم تمت المعاهدة النهائية في يناير سنة ١٧٨٤، وبها دخلت الولايات المتحدة في عالم الدول المستقلة باعتراف إنجلترا!

يتولى عرش مصر ثلاث مرات

يعد عصر المماليك من أزهى عصور تاريخنا القومي، إذ لازالت آثاره المادية شاخصة بين ظهرانينا إلى اليوم، وهو من ناحية أخرى غني بسلاطينه الذين بنوا إمبراطورية شاسعة الأرجاء ممتدة الأطراف، خطب ودها ملوك آسيا وأوربا، وانتقل في عهدها مقر الخلافة من بغداد إلى مصر.

وفي طليعة هؤلاء السلاطين الناصر مُحَّد بن قلاوون الذي ولد وأبوه يحارب الصليبيين في بلاد الشام، وقد تم له الاستيلاء على حصن منيع بعد أن استعصى عليه، فكان نبأ مولده بشرى سعيدة لأبيه، ثم انتقل إليه الملك عام ٦٦٣ هـ- ١٢٩٣ م بعد وفاة أخيه السلطان خليل، فألقيت على كاهله أعباء الحكم وهو في التاسعة من عمره.

حاول بعض الأمراء اغتصاب عرشه، ولكن آخرين ممن غمرهم فضل أبيه جاهدوا في سبيل الإبقاء على سلطته. وكان توليه في فترة امتلأت فيها البلاد بالفتن عقب مقتل أخيه خليل.

بدأ حكمه بتعيين الأمير زين الدين كتبغا أتابكة للعسكرونائبة للسلطنة الإخلاصه لذكرى أخيه وانتقامه من قتلته، ثم معاونته على الوصول سدة إلى العرش ؛ كما عين الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيرا له.

غير أن نائب السلطة والوزير وثالث هو حسام الدين الاجين (أحد قواد الجيش) تنافسوا على اغتصاب عرشه، وانتهى الصراع بمقتل

الشجاعى وإعلان خلع السلطان الناصر وتولية كتبغا سلطانًا باسم العادل سنة ٦٩٤هـ على أن يكون لاجين نائبًا له. واضطر النادر منذ ذلك الحين إلى الإقامة في القلعة والاحتجاب عن الناس.

ولكن الأقدار أبت أن تجامل العادل السلطان الجديد، إذ أصيبت البلاد بالغلاء والوباء والجدب، وانخفض ماء النيل، فضلًا عن سوء سياسته؛ كل ذلك دفع نائبه لاجين إلى الحمل عليه ليحل محله، فثار عليه واضطره للفرار إلى الشام وأعلن تنازله، وعندئذ بايع الأمراء لاجين سلطانًا سنة ٦٩٦ هـ، فعجل بإرسال الملك الناصر إلى الكرك، بحجة إبعاده عن مواطن القلاقل حتى يبلغ سن الرشد.

وبعد أن أطمأن لاجين على ملكه سار سيرة أغضبت الأمراء، فاشتد حنقهم عليه، واتفقوا على الغدر به. وتمكنوا من قتله ستة ٦٩٨هـ، فتجدد التفكير في إعادة الناصر إلى عرشه. وحاول القتلة اغتصاب الملك ولكنهم فشلوا فيما أرادوا وقتلوا بدورهم ؛ وتحالف لفيف من أكابر الأمراء على تدبير أمور الدولة جميعًا نحو شهر، حتى وصل الناصر من الكرك فاستقبله المصريون جميعًا استقبالًا حماسيًا مطالبين بالانتقام من كتبغا ومن أعوانه الأمراء المتأمرين مما جعل هؤلاء يحتاطون لأنفسهم.

ولما استقر الناصر على العرش عين الأمير سيف الدين سلار نائبا للسلطنة، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير إستادارًا، وكان اختياره لهما غير موفق لأنهما ضيقا عليه ولم يمكناه من الاتصال بشعبه أو التصرف في أمواله بل حجرا عليه وقررا له راتبا شهريًا ضئيلًا.

حاول الناصر القبض عليهما والتخلص منهما ولكنه فشل، فلم يجد بدًا من الرحيل عن مصر مختارًا قبل أن يتعذر عليه ذلك، متظاهرا بالسفر للحج؛ ولكنه ذهب إلى الكرك وكتب إلى أمراء مصر بأنه اعتزم الإقامة نهائيًا بها. وعند وصول كتابه هذا استقر رأي الأمراء على دعوته إلى مصر وإلا خلعوه وكتبوا إليه كتابًا جاء فيه:

".. فخل عندك الصبا وقم واحضر إلينا وإلا بعد ذلك تطلب الحضور ولا يصح لك وتندم ولا ينفعك الندم..." ولكنه لم يكترث لتهديدهم..

واستقر رأي أمراء مصر على أن يعهدوا بالملك إلى الأمير سلار نائب السلطة، ولكنه اعتذر وأحال تلك المهمة الحسيمة إلى الأمير بيبرس.

حاول بيبرس الحصول على تأييد نواب مصر بإمارات الشام، ولكن أغلب هؤلاء أبوا أن يجاروه، بل اتصلوا بالناصر يعرضون عليه استعدادهم لمعاونته على استرداد ملكه، ولكنه دعاهم إلى التريث حتى تتحرج الأمور أمام بيبرس وحينئذ يمكن التخلص منه.

وعلم بيبرس، بذلك فاجتهد في بذل الوعود لضم أمراء الشام، فتظاهر بعضهم بالموافقة في حين كانوا يضمرون الولاء للناصر. ولما أرسل بيبرس مهددًا الناصر بسوء المصير إذا لم يكف عن الاتصال بأمراء مصر والشام رأى الأخير أنه لا مفر من بدء العمل الجدي، فأعد عدته للرحيل إلى مصر. وما كاد النبأ يترامى إلى أهلها حتى تظاهروا ضد بيبرس.

وعلم بيبرس إلى الخليفة المستكفي بالله وحصل منه على عهد بتوليته الملك، كما جدد البيعة وأخذ العهود والمواثيق، ولكن ذلك كله لم يغنه فتيلا، إذ مالت كفته وكثرت سيئاته وازداد كره المصريين له.

روى ابن إياس في كتابه "بدائع الزهور" أن النيل توقف في عهده من الزيادة سنة ٧٠٩ هـ فكان العامة يغنون:

سلطاننا ركين[١] ونائبه دقين[٢]   يجينا الماء من أين؟

هاتوا لنا الأعرج[٣]   يجيء الماء يدحرج

ويظهر لنا كره الخاصة لحكم بيبرس هذا من قول الشاعر شهاب الدين أحمد بن عبد الدايم الشارمساحى:

قل لبيبرس إن الدهر ألبسه   أثواب عارية في طولها قصر

لما تولى الخير عن أمم   لم يحمدوا أمره فيها ولاشكروا

وكيف تمشي به الأحوال في زمن   لا النيل أوفى ولا وفاهم مطر

لهذا آثر إعلان خلع نفسه من السلطة بعد أن استولى على ما بخزائن الدولة من مال وفر هاربًا. فلما علم بذلك العامة أدركوه ورجموه بالحجارة.

وتقدم الناصر إلى مصر سنة ٧٠٩هـ واسترد ملكه للمرة الثالثة والأخيرة، وبدأ يحكم بنفسه، فتخلص من أعدائه، ونجح في تكوين إمبراطورية بسطت نفوذها على المناطق التي تمتد من برقة غربًا إلى ساحل

()١ ركين يراد به ركن الدين بيبرس.

()٢ الأمير سلار لأن ذقنه كان بها شعر.

()٣ الناصر أنه كان به بعض العرج.

البحر الأحمر شرقًا بما في بلاد العين والحجاز، ومن آسيا الصغرى شمالًا حتى بلاد النوبة جنوبًا حتى خطب وده ملوك أوربا وآسيا.

وكانت نهاية حكمه عام ٧٤١ هـ- ١٣٤٠ م فكأنه حكم في الفترة الثالثة نحو اثنتين وثلاثين عامًا كانت كلها خير وبركة على البلاد وتنظيما وتجديدا وإنشاء في جميع النواحى.

أمريكا تدفع جزية للمغاربة

ظل البحر الأبيض المتوسط زمنًا طويلًا مجالًا فسيحًا للقرصنة التي تركزت في أواخر القرن الثامن عشر في بلاد المغرب (مراكش والجزائر وتونس وطرابلس)، وعمد أمراء تلك البلاد إلى الإغارة على مراكب الدول الأوربية ونهبها وأسر بحارتها والاحتفاظ بهم إلى أن تقوم حكوماتهم بدفع فدية عالية لقاء إطلاق سراحهم.

وكانت الدول الأوربية ومنها إنجلترا– سيدة البحار يومئذ– تدفع جزية سنوية لهؤلاء الأمراء لقاء تركهم سفنها تمر بسلام مفضلة ذلك على الاشتباك معهم في حروب قد تثير الدولة العثمانية وتقطع علاقاتها معها، لأن أغلب أجزاء تلك البلاد كان يتبعها يومئذ، هذا إلى انشغالها بإنشاء مستعمرات جديدة أو توطيد نفوذها فما كان تحت يدها.

ولما استقلت أمريكا وأصبح لها أسطول خاص اضطر جورج واشنطن إلى اتباع تلك العادة، وعقد مع أمراء المغرب معاهدات تدفع الولايات المتحدة بموجبها مبلغًا معينًا كل عام. وقد بلغ ما دفعته طوال مدة رئاسة واشنطن وآدمز (١٧٨٩–)١٨٠٠ (نحو مليوني دولار (٣٠٠,٠٠٠) ولكن حدث أن طمع الأمراء في رفع أنصبهم، وتمادى حاكم طرابلس وأقدم سنة ١٨٠٣ على تحطيم سارية العلم المرفوعة على القنصلية الأمريكية وطرد القنصل، وكان يومئذ وليم إيتون "Wiliam Etn" وحاولت الولايات المتحدة غسل تلك الإهانة، ولكن السفن الحربية التي أرسلتها كانت قليلة العدد فلم توفق.

وليم إيتون

وتقدم وليم إيتون القنصل الأمريكي السابق لحل تلك المشكلة– وكان يومئذ يعمل بالأسطول الأمريكي في البحر الأبيض، الذي فشل في إخضاع طرابلس– وواتته الفرصة سنة ١٨٠٥، إذ أن يوسف الكارامانلي والي طرابلس كان قد طرد أخاه أحمد حاكم مدينة طرابلس، فالتجأ الأخير إلى مصر، فاتصل إيتون به في القاهرة، واتفق معه على أن يعيده واليًا لطرابلس على أن يكون صديقًا للولايات المتحدة، وأعدت حملة لغزو طرابلس، وكونت سرًا في مصر، وكانت عدتها ٥٠٠ جنديا أغلبهم من العرب واليونانيين، وكلهم تحت قيادة عشرة أمريكيين.

وقامت الحملة من برج العرب، وقد تمكنت تلك الحملة بمساعدة بعض السفن الأمريكية من احتلال درنه، فأسقط في يد والي طرابلس، فهدد بقتل الأسرى الأمريكيين. وجرت مفاوضات أسفرت عن تعهد الأمريكيين بدفع ٦٠,٠٠٠ دولار فدية للأسرى والاستمرار في دفع الجزية المعتادة، وتم ذلك سنة ١٨٠٧.

ولكن الاعتداء لم يقف بعد ذلك فاضطرت الولايات المتحدة عام ١٨١٦ إلى إعداد حملة بحرية ضخمة ما كاد المغاربة يرونها حتى أسرعوا إلى طلب الصلح، وبدأت العلاقات في التحسن وألغيت الجزية نهائيًا.

يشهد مصرع ثلاثة رؤساء لأمريكا

بعد أن أنتخب إبراهام لنكولن عام ١٨٦٠ رئيسة الولايات المتحدة الأمريكية بقليل قامت الحرب الأهلية بين الولايات الشمالية والجنوبية بسبب اختلافهما على مبدأ تحرير العبيد. وكان بين من جندوا دفاعًا عن فكرة إلغاء الاسترقاق الشاب روبرت لنكولن ابن الرئيس. وانتهت الحرب سنة ١٨٦٥ بانتصار الرئيس والولايات الشمالية التي آزرته، وقد أعيد انتخاب لنكولن مرة ثانية سنة ١٨٦٤.

وفي مساء ١٤ أبريل سنة ١٨٦٥، وبينما كان الرئيس في مسرح فورد بواشنطن يشهد إحدى التمثيليات إذا بأحد الممثلين واسمه جون بوث يغتاله.

واتفق يومئذ أن روبرت ابنه– وكان معسكرًا في مكان بعيد عن العاصمة– كلف بتقديم تقرير عن بعض المسائل الحربية المتصلة بالحرب إلى رؤسائه، فعجل بتنفيذ الأمر. ولما وصل إلى العاصمة وعلم بوجود أبيه بالمسرح أسرع لمقابلته، ولكنه لم يكد يجتاز باب الدار حتى فوجئ بما أذهله، إذ رأي الناس يحملون أباه وقد تلوثت ملابسه بالدماء إثر الرصاصة التي أطلقت عليه وعجلت بموته في اليوم التالي.

ومضت بضعة أعوام درج خلالها روبرت في وظائف عدة حتى أصبح وزيرًا للحربية في عهد الرئيس جارفيلد سنة ١٨٨١، وحدث أن استدعاه

الرئيس لمرافقته في رحلة خارج واشنطن، ولكن بعض الشواغل حالت دون تلبيته تلك الدعوة وتطلبت بقاءه في العاصمة، فرغب في أن يعتذر. للرئيس عن مرافقته وعجل بالذهاب للمحطة ليبلغه ذلك قبل سفره، ولكنه لم يكد يجتاز فناء الخطة حتى رأى الرئيس محمولًا إثر إصابته برصاصة من شاب طائش يدعى جيتو.

وبعد عشرين عاما، أي سنة ١٩٠٢، أقيم في بفلو معرض كبير للدول الأمريكية، وتلقي روبرت لنكولن دعوة من الرئيس. ماكنلي ليكون في رفقته في أثناء زيارته لذلك المعرض، وأجاب روبرت الدعوة ولكن ظروفًا خاصة أرغمته على الوصول متأخرًا بعد دخول الرئيس بدقائق. فما كاد يصل إلى باب المعرض حتى رأى الرئيس ماكنلي محمولًا بعد أن اغتاله فوضوي يدعي ليون زولجوز.


روبرت لنكولن

وهكذا قدر له أن يشهد مصرع أبيه ومصرع رئيسين من بعده!

تمثال الحرية كان لمصر لا لأمريكا

عندما منح سعيد باشا صديقه ديلسبس عقد امتياز حفر قناة السويس واستغلالها، وأعلن ذلك لقناصل الدول نزل هذا النبأ على أغلبهم نزول الصاعقة، وأقيمت عقبات شتى وأبديت معارضة قوية في مصر وفي تركيا لإحباط المشروع، ولكن صبر ديلسبس وجلده وقرابته من الإمبراطورة أوجيني ومعاونها وزوجها له، كل ذلك مكنه من التغلب على جميع الصعوبات، حتى إذا ما استهل عام ١٨٦٩ لم يبق إلا اتخاذ الإجراءات اللازمة للافتتاح.

وانتهز إسماعيل تلك الفرصة ودعا حكام أوربا وعظماءها لشهود حفل الافتتاح، وكان في طليعة من لبوا دعوته الإمبراطورة أوجيني قرينة نابليون الثالث.

وقد لقي المدعوون وفي طليعتهم الإمبراطورة كل إجلال وإكرام، وتم الافتتاح في يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩؛ وبعد قليل عاد ضيوف إسماعيل إلى أوطانهم وكلهم يتحدث بما لقي في مصر من عظيم الحفاوة .

وكان أشد هؤلاء تأثرًا الإمبراطورة أوجيني، فهي قريبة صاحب مشروع القناة ومنفذه، وقرينة عاهل الأمة الفرنسية التي احتضنت المشروع. فجالت بخاطرها عقب عودتها إلى فرنسا– ونفسها نشوى بما أحرزته بلادها من نصر– أن تعمل على تمجيد ذلك المشروع بإقامة تمثال فخم ينصب على مدخل القناة تخليدًا لتلك الذكري وإكبارًا لنهضة مصر على يد إسماعيل، فعهدت إلى المثال

الفرنسي فردريك أوجست بارتولدي في تنفيذ فكرتها.

وامتثل الفنان للأمر وأخذ في تصوير الفكرة، وعندما انتهى من عمله كان التمثال الذي هدته إليه قريحته هو تمثال فلاحة مصرية تحمل مصباحًا بيدها وهي تبسطها نحو آسيا، ورأى أن يكتب على قاعدة التمثال "مصر تبعث النور إلى آسيا".

وبينما المثال منهمك في إخراج نموذج مصغر للتمثال قامت الحرب بين فرنسا وبروسيا (ألمانيا) في يوليه سنة ١٨٧٠ وانتهت بانتصار ألمانيا، وأسر الإمبراطور في معركة سيدان سنة ١٨٧٠، ثم سفره إلى إنجلترا بعد الصلح سنة ١٨٧١ ومعه زوجته أوجيني.

وعادت فرنسا إلى الحكم الجمهوري من جديد، ورأى فريق من أبنائها أن يقدموا تحية لأمريكا إثر خروجها منتصرة من حرب التحرير تذكارًا للصداقة القديمة بين الدولتين فبدأت الاكتتابات تنهال على اللجنة التي تشكلت لهذا الغرض عام ١٨٧٤، وتم جمع ما قيمته ربع مليون دولار وكاف المثال بارتولدي بعمل تمثال يحقق تلك الفكرة، فوجد أمامه تمثالًا بذل فيه كل ما استطاع من براعة فنية ليكون عنوان مجده الخالد، ولكنه لن ينجح في إقامته لسقوط الإمبراطورة من جهة وللمتاعب المالية التي لاقتها شركة قناة السويس في أعوامها الأولى.

لهذا تناول تمثاله الأول وأدخل عليه من التعديلات ما جعله ملائمًا لإقامته رمزًا للحرية الأمريكية التي تبسط نورها على كل قادم لتلك البلاد!

محاولة نسف البرلمان الإنجليزي

من التقاليد البرلمانية في إنجلترا أن تطوف بمجلس العموم فرقة من الهند قبل انعقاد أولى جلسات أية دورة، للبحث عما إذا كانت هناك محاولات لنسف المجلس أو تعطيل انعقاده.

بل لقد درج الإنجليز كل عام على الاحتفال بما يسمونه "مؤامرة البارود" أو محاولة نسف البرلمان، وذلك بحمل تماثيل من القياش أشبه بما ييجي عندنا "خيال المقاتة" يشعلون فيها النار استنكارًا لما كان يحاوله صاحبها "جي فوكس" من العبث بالبرلمان، يشاركهم في كل ذلك أطفالهم الذين يطوفون بالمدن والقرى يجمعون البنسات لشراء المعدات، وفي المساء يرتدى الكبار الملابس التنكرية وتطلق الصواريخ وتنشد الأغاني الحماسية ويسود الجميع جو من المرح، وينتهي الاحتفال بإشعال النيران على قمم التلال والأماكن العالية لحرق تمثال فوكس إظهارًا لشعورهم نحو العمل الشنيع الذي كان يحاوله وتذكرة لما يجب توفره من التسامح الديني بين أبناء الوطن الواحد.



البيت المجاور للمبنى القديم للبرلمان البريطاني

والآن ما هي قصة جي فوكس؟

كان الكاثوليك الرومانيون يلقون أنواعًا شتى من الاضطهاد بسبب عقيدتهم، فلما تولي جيمس الأول سنة ١٦٠٣ استبشر الكاثوليك الرومانيون لما سمعوه عن ميله للتسامح الديني، ولكن ظنونهم خابت إذ أصر على تنفيذ القوانين الجائرة التي عوملوا بها في عهد سابقيه.

لذلك اعتزم بعضهم التخلص من هذا الحيف باغتيال الملك، غير أن تلك الفكرة طرحت جانبًا لأن أبناءه قد يتبعون مبادئه، وربما يتغالون فيها فيزيد الخسف والاضطهاد بالقوم. ولو أبيدت الأسرة المالكة كلها فإن البرلمان واللوردات والأعيان الذين كانوا يدينون بالمبادئ نفسها سينصبون ملكًا بروتستنتيًا بأية طريقة على العرش.

وإذن فالحل الوحيد هو التخلص بضربة واحدة من الملك وإبادة الأسرة المالكة واللوردات وأعضاء مجلس العموم. ولما كان هؤلاء جميعًا يجتمعون عند افتتاح دورة البرلمان فتلك فرصة مواتية.

استعان المتآمرون بجى فوكس للتنفيذ، واستأجروا بيتًا مجاورًا للبرلمان، وحفروا فيه نفقًا أوصلهم إلى قبو تحته كان يؤجر بمزايدة عامة لخزن الفحم، فاستأجره أحدهم، وكرسوا فيه ٣٦ برميلًا ملأى بالبارود وأخفوها تحت حزم من القش وأكوام من الخشب.

يضاف إلى ذلك كله تدابير أخرى اتخذت للقضاء على من سيسعده الحظ بالتغيب يوم الافتتاح.

وظلت المؤامرة سرية نحو عام ونصف عام لا يعلم بها سوى مدبروها، حتى لم يبق على موعد التنفيذ سوى أيام قلائل، إذ أرسل أحد المتآمرين كتابا ناوله مجهول لخادم اللورد مونت إيجل، وفيه يحذره من حضور جلسة الافتتاح منوهًا بأن البرلمان سيصاب بكارثة هائلة من يد خفية. وبادر اللورد إلى إبلاغ الحكومة، ورفع الأمر للملك، واستقر الرأي بعد بحث الموضوع مليًا على تفتيش القبو الموجود تحت البرلمان قبل يوم الافتتاح،

وذلك يوم ٤ نوفمبر سنة ١٦٠٥، وفيه وجد جي فوكس في منتصف الليل ومعه الكبريت والفتيل. فقبض عليه واعترف بأسماء شركائه، فتبين عليهم بدورهم وأعدم بعضهم وسجن بعضهم ودفع فريق ثالث غرامات مالية جسيمة.

وبذلك انتهت تلك المؤامرة الفريدة في التاريخ.

رئيس وزراء يضرب في الطريق!

كانت إدارة البلاد المصرية في أيام مُحَمَّد على باشا تقوم على مبدأين متناقضين، أولهما: السلطة المطلقة للوالي، وثانيهما أنه لم يكن ليتخذ قرارًا في أمر ما إلا بعد أن يستمع الآراء المجلس المختص به. وقد دعاه إلى ذلك فقر مصر من الأكفياء الذين يستطيعون تسيير دفة الأمور، فكان طوال مدة حكمه حاكمًا ومربيًا للرجال، ولم تكن المجالس والدواوين التي أنشأها هيئات إدارية شكلية بل كانت مدارس لتدريب الموظفين الصيادين. على أن السلطة المطلقة التي كانت للوالي لم تحدد إلا في أواخر إسماعيل، إذ أن الفترة التي مضت بين وفاة إبراهيم وتولى إسماعيل، وهي نحو ربع قرن، خلت من الهيئات الشورية التي أقامها مُحَمَّد علي.

ولما كان إسماعيل– برغم قدرته النادرة على تفهم أعمال الحكومة وإلمامه بتفاصيل النظم الإدارية ودقائقها– يقدر المظاهر الدستورية في البلاد، فقد أنشأ مجلس شورى النواب، وبدأ الرأي المصري يتكون حتى صار قوة يحسب حسابها. وقد كان للمشروعات الكبيرة والنفقات الباهظة التي تطلبتها، والديون التي صحبتها، أكبر الأثر في حدوث ارتباكات مالية اتخذها الأوربيون وسيلة للتدخل في شئون مصر. وتطورت الحوادث حتى انتهت إلى اقتراح إنشاء وزارة مسئولة تحد من سلطان الخديوي الذي قبل العمل بذلك الاقتراح، فأبرق إلى نوبار يستدعيه لتشكيل أول وزارة.

وتكونت تلك الوزارة في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨، وعين فيها وزيران

أجنبيان أحدهما إنجليزي للمالية والآخر فرنسي للأشغال. وظن الناس أن الأزمة قد انفرجت، ولكن اغتصاب الوزارة لسلطة الخديوي ووجود أجانب فيها وفشلها في علاج الحالة أثار الرأي العام.

وكانت أنشط الطوائف إلى الاحتجاج طائفة ضباط الجيش المحالين على الاستيداع، إذ طالبوا بمتأخر رواتبهم، واجتمعوا على مقربة من قصر عابدين، وانتهزوا فرصة مرور نوبار باشا في عربة فوقفوها وانقضوا عليه وأمسكوا بتلابيبه، وأخذت أيديهم تتداوله، وامتدت يد أحدهم إلى رباط رقبته فقطعته، وطرح بعضهم طربوشه، وديس في الوحل، وتوالت على وجهه الصفعات.

وبينما كانت هذه المأساة تمثل قدم السير ويلسن وزير المالية فوقف المتظاهرون عربته، ووثب عليه بعضهم وأمسكوا بلحيته ونتفوها وأشبعوه ضربًا ولكمًا.

وتوالت الإهانات على الوزيرين بصور شتى حتى أوصلهم المتظاهرون إلى وزارة المالية وهناك أدخلوهما إلى غرفة السير ويلسن حيث صب عليهما وابل من التهديد بإذاقتهما أضعاف ما لقياه إذا لم تصرف المتأخرات.

وأنقذ الخديو إسماعيل الموقف بقدومة بنفسه إلى الوزارة، وبعد تأكده من سلامة المعتدى عليهما أمر الضباط بالانصراف بعد أن وعد بإجابة طلباتهم؛ ولكنهم تلكأوا في تنفيذ أمر سموه فاستدعى الجيش وانصرف المتظاهرون بعد إطلاق الرصاص.

وانتهز الخديوي الفرصة وأقال الوزارة بعد أن أعلن نوبار عجزه عن ضمان الأمن والنظام.

جمجمة السرطان ومعاهدة فرساي

في جميع برلمانات العالم تطرح أحيانًا أسئلة، لا للمناقشة والرغبة في الوصول إلى جواب شاف، وإنما حبًا في التفكهة والترويح عن الأعضاء المحترفين.

من ذلك جمجمة السلطان مكواوا "Mkwawa" التي كان يسأل بعض النواب الإنجليز حكومتهم عنها مستفسرين عما إذا كانت الحكومة الألمانية قد قامت بتسليمها تنفيذا للمادة ٢٦٤ من معاهدة فرساي أم لا.

كان السؤال إذا وجه للحكومة أثار عاصفة من الضحك بين النواب يستجمون خلالها، وأصبح لطرافته سؤالًا لاتخلو منه أية دورة، ونتيجته دائمًا وعد من الوزير المسئول للنائب المحترم بالبحث العاجل، ثم مراسلات دبلوماسية بين الحكومتين البريطانية والألمانية، ومجموعة جديدة من الأوراق تضاف إلى ملف جمجمة السلطان مكواوا.

وأخيرًا أهمل هذا السؤال لا لأن الجمجمة ردت، بل لأن ألمانيا أخذت تهزأ بمعاهدة فرساي وتخالف بنودها فما هو أهم من الجمجمة.

هذه الجمجمة– وهي لأحد زنوج أفريقيا– مثل من التوافه التي كانت تحفل بها معاهدات العصور الغابرة. فما سبب ذكرها في معاهدة تناولت بالتغيير والتبديل صف خريطة العالم وشغلت أعظم ساسته أشهرًا؟ كانت قبيلة الواهيهي "Wahihi" في إرنجا "Iringa" التي تبعد نحو ميل عن بحيرة

نياسا في أفريقيا الشرقية الألمانية التي أطلق عليها بعد الحرب العظمى الأولى اسم تنجانيقا، وكان مكواوا آخر سلاطينها المستقلين قد تمكن بالحرب المتواصلة من إخضاع القبائل المجاورة وإدماجها في قبيلته وزيادة أملاكه واتساع نفوذه.

ولما استعمر الأوربيون أفريقيا في القرن التاسع عشر كانت أملاك مكواوا تحيط بها أملاك ألمانيا من جميع الجهات، فلا بدأوا يوسعون مجال استعارهم دارت بينهم وبين مكواوا معارك عنيفة استمرت سبع سنين وانتهت مصرع مكواوا، ففصل الألمان رأسه وأرسلوها إلى ألمانيا غنيمة وتذكارًا لحرب ضروس قامت في وجه ألمانيا المستعمرة.

واستتب الأمر للألمان بصفة عامة، ولكن الروح العدائية بين قبيلة الواهيهي والألمان لم تخمد بل زادت مقاومتها وأصبح مكواوا بطلًا خالدًا مقدسًا، غير أن غياب الرأس زاد في هياج النفوس وأجج نيران الثورات، لاسيما أنهم طالبوا بالرأس فرفض طلبهم، ومضت عدة أعوام، ولكن الواهيهي لم ينسوا رأس زعيمهم، وظلت الحال كذاك حتى قامت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ وانتهت باحتلال الإنجليز تلك البلاد.

ولما علم الواهيهي بانكسار الألمان طالبوا الحكومة البريطانية برد الجمجمة، وذهب وفد منهم إلى لندن وقابلوا المستر الويد جورج رئيس الوزراء يومئذ، وشعرت بريطانيا بجدية الطلب وأهميته في نظر القوم، ولذا أدرجته في معاهدة فرساى، إذ نصت المادة ٢٦٤ من تلك المعاهدة على ما يأتي:

"بعد مضي ستة أشهر من تنفيذ المعاهدة تقدم ألمانيا لحكومة صاحب الجلالة البريطانية جمجمة سلطان مكواوا التي نقلت من أفريقيا الشرقية الألمانية إلى ألمانيا".

وانقضت المدة المحددة ولم تتقدم ألمانيا بالجمجمة السلطانية، ولمست إنجلترا بوادر القلق من جانب الواهيهي الذين نفد صبره، فطالبت ألمانيا بالتنفيذ، وهذه بحثت في جميع المتاحف والمعاهد العلمية فلم تجد لتلك الجمجمة أثرًا. ولما ألحت إنجلترا في الطلب بعثت إليها ألمانيا بثلاثة جماجم مع الاعتذار بعدم إمكان إيضاح أيها تخص السلطان مكواوا.

وكان أمام إنجلترا أحد أمور ثلاثة: إما أن تبعث بالجماجم الثلاثة إلى الواهيهي ليختاروا إحداها بدلًا من الجمجمة المفقودة وإما أن يختاروا هم جمجمة منها يرسلونها إليهم على أنها الجمجمة المطلوبة أو أن يلتزموا السكوت. وآثر الإنجليز المسلك الأخير، وظل السلطان بلا رأس حتى الآن.

وأخيرًا بعد مئات السنين سيقف المؤرخون حائرين يتساءلون من ذلك الرجل العظيم الذي استحقت جمجمته أن تنفرد بمادة خاصة في معاهدة فرساى؟

المكرونة وقناة السويس

تقترن بعض الحوادث الجسام في تاريخ العالم بأسباب تافهة، وقد تدفع هذه الحوادث العالم إلى الخلف أو إلى الأمام حسب استغلال الأمم لها. والتاريخ مليء بالشواهد المؤيدة لذلك، فكثير من الحروب الطاحنة نجم عن مسائل تافهة لا تزيد عن المنازعات التي تقوم بين الأفراد. فمن يصدق أن طابع بريد يثير حربًا أو أن عنكبوتًا يحرر شعبًا، إلى غير ذلك. ولو أننا استعرضنا التقدم العلمي لوجدنا أن الشيء الكثير منه كان نتيجة لملاحظة أمور صغيرة، فقانون الجاذبية أدت إليه رؤية نيوتن التفاحة تسقط من شجرة، والبخار سببه وعاء ماء كان يغلى أمام جيمس وات إلخ.

وها هي ذي قناة السويس فكرتها قديمة، وقد اجتازت مراحل جعلت إنشاءها من رابع المستحيلات، ولكن عاملًا تافهة ذلل الصعوبات التي اعترضت حفرها وعبد الطريق لإنشائها.

كان المسيو ماتيو ديلسبس قنصلًا عامًا لفرنسا في مصر عقب جلاء الفرنسيين وقبيل تولية مُحَمَّد علي، وكانت علاقته به طيبة، ثم نقل منها، فلما رزق ابنه فرديناند اشتغل الأخير بدوره بالتمثيل السياسي فعين في بدء الأمر نائبة للقنصل الفرنسي في الجزائر، ثم نقل إلى الإسكندرية. وحدث عند قدومه إليها أن حجز في الحجر الصحي بالميناء وتلقى مجموعة من الكتب أرسلها إليه المسيو ميمو القنصل العام بالإسكندرية ليقطع بقراءتها وقت الفراغ الذي أكره عليه، وكانت بين هذه الكتب مذكرة عن قناة

السويس وضعها رئيس فرقة المهندسين في حملة نابليون، وهو المسيو البير، فلما قرأها ألهبت خياله وبدأ يدرس هذا الموضوع دراسة مستفيضة.

ولما تقلد أعباء منصبه بمصر في سنة ١٨٣٢ لقي من لدن عاهلها الكبير كل تقدير بسبب العلاقة القديمة مع والده، ولما كان يمتاز به من الكياسة ورقة الحاشية، فأصبح يثق فيه..

كان سعيد يومئذ في مقتبل شبابه، ولكنه كان يميل إلى البدانة، ولذا وضع له والده نظامًا خاصًا يقتضي البساطة في الطعام، و رتب له طائفة من الألعاب الرياضية يمارسها خشية السمنة المفرطة. وليس أدل على ذلك ما ورد في بعض رسائله إليه وهو في الإسكندرية: "عليك بدوام الأنتباه للدرس والسير بالمشي والحركة لعدم حصول السمن". وقوله: "سأحضر للإسكندرية لامتحانك، فإذا ظهر عدم الالتفات للدرس وعدم إزالة ثقل جسمك فرحمة بحالك!"، كما حظر عليه والاجتماع على عادمي الأدب. وحذره من «"معاشرة القبوردانات القدماء الذين لا يدرون شيئًا من الآداب" وأوصاه "بالائتلاف بمن لهم معرفة بالأصول الجديدة والاهتمام في تعلم تلك الأصول منهم".

وكان فرديناند دى لسبس، لشخصيته المحبوبة، في طليعة من صرح لسعيد بالاختلاط بهم. وفي بيت دى لسبس وجد سعيد كل إجلال واحترام، فكان لا يكاد يفرغ من تمريناته اليومية حتى يهرع إلى بيت دى لسبس فيجد من الأغذية الدسمة الوفيرة ما يشبعه فيتناول منها خفية ما يشتهي. واكتشف دى لسبس ميلًا ظاهرًا من سعيد إلى المكرونة فاهتم

بهذا الصنف، وأخذ طباخه يتفنن في طهيه حتى ازداد ولع سعيد به، وتوثقت عرى المحبة واشتدت أواصر المودة بين الاثنين حتى نقل دى لسبس إلى خارج مضر، ولم يبق في منصبه طويلًا إذ اعتزل العمل، وانقضت بضعة أعوام قضى أغلبها في دراسة مشروع القناة.

وذات يوم حمل إليه البريد نبأ تولى صديقه القديم ولاية مصر فكتب إليه ذاكرًا أن تقلب الأحداث قد خلفه متعطلًا لا عمل له، فأرسل إليه سعيد ليعجل بالحضور، ووضع أحد قصوره تحت تصرفه، ثم دعاه إلى أن يكون بين رجال حاشيته في زيارة القاهرة.

ولمس دى لسبس من سعيد ميلًا للفروسية، وكان يحذقها، فأبدى فيها مهارة جعلته موضع إعجابه. وانتهز الفرصة وفاتح سعيد في المشروع، فأثار هذا جملة اعتراضات رد دى لسبس عليها بما أقنعه، ولم تمض أيام حتى وقع سعيد أول امتياز مدفوعا بعامل الصداقة والتقدير لدى لسبس، ولذلك ترددت كلمات "صديقي" و "الصداقة" كثيرًا في المكاتبات الصادرة من والي مصر.

وكان لدى سعيد باشا عصوان أهداه دى لسبس إحداهما وأهداه الأخرى أميرال إنجليزي، ولشدة تلهف دي السبس على إنهاء المشروع كان يتحدث أحيانًا إلى سعيد وفي حضرته أناس يكرهون مشروع القنال ويحاربونه، فأشار عليه سعيد بألا يحدثه في ذلك الموضوع إذا رأى معه عصا الإنجليزي، وأن يتحدث ما شاء إذا وجد عصاه في يده.

وظل دى لسبس يجاهد ويجالد حتى حظي من سعيد بكل ما تصبو إليه نفسه.

ومن النوادر اللطيفة التي تروى عن ميل سعيد باشا للأطعمة الفاخرة ما رواه إسكندر باشا فهمي: أن سعيد باشا كثيرًا ما سافر إلى السويس بقطار خاص لتناول طعام الأرز بالفراخ والكاري فقد كان بفندق السويس المعد للسائحين طباخ ماهر يحذق طهي هذا اللون من الطعام".

أعلام من شعور النساء

إن مدينة القاهرة والأزهر الشريف مدينتان بوجودهما للفاطميين الذين حكموا مصر زهاء قرنين تقلبت فيهما الحياة المصرية بين ألوان من البذخ قل أن تجدها في عصر آخر من عصور التاريخ المصري، كما امتدت أملاك مصر من المحيط الأطلنطي غربا إلى نهر الفرات شرقًا.

غير أن تلك الدولة منيت بفترة استأثر الوزراء فيها بالنفوذ والسلطان وأصبح الخلفاء خلالها مسلوبي السلطة معهم، بل إن الوزراء كانوا يختارون الخلفاء حسب أهوائهم، وجاء عصر طفح بالنزاع بين الخليفة والوزير حينة، كل يحاول الانفراد بالسلطة، وبين الوزراء أنفسهم حينًا آخر يحاولون فرض أنفسهم بالقوة على الخليفة.

في عهد الظافر (٥٤٤- ٥٤٩هـ= ض١١٤٩- ١١٥٤) اشتد النزاع بين وزرائه. بين ابن السلار ومنافسه ابن مصال، وحاول كلاهما الاستنجاد بنور الدين صاحب حلب ودمشق لينصره على منافسه، ولكن الصليبيين كانوا بالمرصاد يطمعون في الاستيلاء على مصر، ولهذا وقف كل من الطرفين (الصليبيون ونور الدين) يترقب أحدهما تقدم الآخر.

غير أن الحرب أسفرت عن قتل ابن مصال ثم مصرع منافسة على يد نصر بن عباس بن أبي الفتوح. وخلا الجو للخليفة الظافر فعين عباسة والد نصر وزير.

وبلغ من جرأة عباس هذا أن تآمر هو وابنه على قتل الخليفة الظافر ليتولى الأب الوصاية على طفل الخليفة الذي لم يكن وقتئذ يتجاوز الرابعة من عمره[1]. وكان عباس هذا من الصفاقة بحيث اتهم إخوة الخليفة بالاشتراك في قتل أخيهم ليحول دون تدخلهم في شئون الملك، ولكن حيلته فشلت وعرف الناس أنه القاتل الحقيقي مما أثار استياء الجميع.

ولعب الشعر دورًا هامًا في إنقاذ الموقف إذ أرسل الجليس[2] قصيدة إلى طلائع جاء فيها:

تــدارك مــن الإيمــان قبــل دثــوره	حشاســـة نفـــس آذنـــت بنفـــاد
وقــد كــاد أن يطــي تألــق نــوره	علــى الحــق عــاد مــن بقيــة عــاد
فلـــو عاينـــت عينـــاك بالقصـــر	يــومهم ومصــرعهم لم تكتحــل برقــاد

كما أسرعت نساء القصر إلى الاستنجاد بطلائع بن رزيق وإلى الأشمونيين (المنيا) وبعثن إليه بشعورهن، فأسرع طلائع لنجدتهن متخذا من شعورهن أعلاما عقدها إلى أسنة الرماح التي شرعها طليعة جنده، وسار جيشه يهب الأرض.

وبفضل تلك الأعلام التي ابتكرها ابن رزيق استطاع أن يلهب حماسة المصريين وأن يستميلهم إلى جانبه فينضموا إلى جيشه، حتى دخل بهم القاهرة وقبض على ناصية الأمور وأعاد الأمن إلى نصابه، وتولى الوزارة وتلقب بالملك الصالح.

()١ هو الخليفة الفائز الذي مات سنة ههه وطلائع لا يزال في الوزارة.

()٢ هو القاضي أبي المعالي عبد العزيز بن الحباب.

أما القاتلان فلم يجدا سبيلًا سوى الفرار، فعجل الأب بالهرب إلى الشام، غير أنه قتل في طريقه إليها. وقبض على الأبن ومثل به أشنع تمثيل، إذ جدع أنفه وصمت أذناه، وانتهى الأمر بصلبه حيًا. ولما مات تركت جثته معلقة عدة أشهر ثم أحرقت.

وزير مصري يرشح لعرش بلغاريا

عندما ثارت بلغاريا في القرن الماضي، سنة ١٨٧٥، للتحرر من سلطان تركيا، قام الأتراك بإخماد أنفاس البلغاريين بكل شدة وقسوة فأتت الجنود التركية غير النظامية (الباشي بوزق) بفظائع تقشعر منها الأبدان وتذرعت بها روسيا للتدخل في صف البلغار فأعلنت الحرب على تركيا، وتوغلت في أرضها حتى وصلت إلى أبواب القسطنطينية فاضطرت تركيا إلى منح بلغاريا الاستقلال الداخلى بعد تعديل حدودها مع خضوعها لسيادة السلطان الاسمية وبشرط دفع جزية سنوية. وبذلك أصبحت دولة واسعة الأرجاء ضمت إليها أراض من مقدونيا وأراض أخرى تجعلها تطل على بحر إيجة ومساحات من بلاد الروملي الشرقي.

ولكن هذا التكوين الجديد كان فيه ازدياد النفوذ الروس في البلقان فتدخل الإنجليز والفرنسيون والتنسيون، ووقفت ألمانيا ووزيرها بسمارك موقف الوسيط، وانجلت الأزمة عن إذعان روسيا، وردت بلغاريا إلى حدودها الأصلية، وفصل أغلب ما ضم إليها مع الاحتفاظ بالاستقلال الداخلي والجزية.

وبدأت الدول تتفاوض في تعيين أمير لها، ولما كان اسم نوبار باشا قد اشتهر يومئذ في أوربا لسفره برفقة الخديوي إسماعيل باشا عند دعوة ملوكها وعظمائها لحفلة افتتاح قناة السويس، ولاتصاله برؤساء حكوماتها في كثير من المسائل التي كلفه إسماعيل باشا دراستها، كالمحاكم المختلطة وغيرها،

لذلك جرى اسمه على ألسنة إعلام أوربا وقتئذ كبسمارك ودزرائيلى، وجرى فعلًا حديث بين نوبار وبين مكاتب التيمس في باريس أسر فيه المكاتب إليه أنه سمع في خلال مقابلاته مع عظماء أوربا ما جعله يؤمن بأنه (أي نو بار) موضع تقدير وإجلال ساسة أوربا وأولى الحل والعقد بها، واقترح عليه ترشيح نفسه لإمارة بلغاريا، فتظاهر نوبار بالاحتجاج على هذا العرض، و بعد مناقشة طويلة أذعن للاقتراح.

تطوع المكاتب يجس النبض، فوجد ممن كاشفهم باقتراحه موافقة إجتماعية بما فيهم بسمارك، غير أن تركيا علمت بالأمر فثار حقد رجالها، وأوغروا صدر روسيا على نوبار، فأعلنت عدم موافقتها على ترشيحه.

انتهز بسمارك الفرصة وقدم لعرش بلغاريا أميرة ألمانيا ذا قرابة من إسكندر الثالث قيصر روسيا إذ ذاك، وهو الأمير إسكندر بتنبرج "Alexaner of Battenberg" فتولى العرش باتفاق الجميع سنة ١٨٧٩.

ومن سخريات القدر أن هذا الأمير اتخذ سياسة أغضبت روسيا وأضعفت من نفوذها في بلغاريا فدبرت مؤامرة لاختطافه، غير أنها بعد قليل أطلقت سراحه، ولكن الأمير اعتزل العرش سنة ١٨٨٦ خوفًا من اغتيال الروس له، وحل محله الأمير فردينند الذي اتخذ لقب "ملك" عندما أعلنت بلغاريا استقلالها التام عن تركيا في سنة ١٩٠٨، وظل ملكا حتى عام ١٩١٨ عندما تنازل لابنه بوريس الذي حكم حتى مات سنة ١٩٤٣ تاركًا العرش للملك سيمون الذي لم يتجاوز السادسة يومئذ، غير أن الملكية ألغيت في تلك البلاد عام ١٩٤٦.

"معزة" السيدة نفيسة!

في ذات يوم من أيام عام ١٧٦٠ فوجئ الزائرون لمشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها برؤية الشيخ عبد اللطيف، شيخ خدمها يومئذ، جالسا بالباب وإلى جواره عنزة. وتساءل الناس: ما هذا يا سيدنا الشيخ ؟ فأجاب: "تلك يا أبنائي عنزة مباركة!"

فازدادت رغبة الناس في الإلمام بخبرها، وسأل أحدهم: "وما دليل بركتها؟"

فأمسك الشيخ بذقنه برهة ثم قال: "وقع جماعة من المسلمين أسرى ببلاد الإفرنج فأحضروا تلك العنزة وعزموا على ذبحها في ليلة يجتمعون فيها ويذكرون الله ويدعونه أن ينجيهم من الأسر متوسلين إليه بالسيدة نفيسة، فلا علم بذلك كبير الإفرنج زجرهم وسبهم. وفي تلك الليلة رأى هذا الإفرنجي الكبير رؤيا أفزعته، فلما جاء الصباح أطلق سراحهم بعد أن أوصاهم بعدم ذبح تلك العنزة، ثم أنزلهم في مراكب حملتهم إلى مصر، فلما وصلوا إليها سالمين وهبوا تلك العنزة للسيدة نفيسة".

وظهرت إمارات الدهشة على المستمعين وقالوا في صوت واحد: " إنها حقا عنزة مباركة!"

وظل الشيخ يردد تلك الفرية أيامًا، ثم أضاف إليها زعمه أنها (أي العنزة) أظهرت كراماتها لخدم مشهد السيدة نفيسة. فالشيخ عبد الرؤوف

المؤذن رآها عند أذان الفجر على المئذنة، والشيخ جمعه سمعها تتكلم!! فازداد إعجاب الناس ولا سيما بعد أن استوثقوا من الشيخ عبد الرؤوف والشيخ جمعه، وأخذوا يشيدون بذكرها في مجتمعاتهم، وأخذت كراماتها تكبر وتتضخم، والشيخ عبد اللطيف يضيف إلى أكاذيبه كل يوم شيئًا جديدًا؛ وكان خاتمة مفترياته ادعاؤه أنه سمع السيدة نفيسة رضي الله عنها تتكلم داخل قبرها موصية إياه بها.

وانتشر خبر العنزة وأقبل الناس من كل فج لزيارتها والتبرك بها، وأمعن الشيخ في افترائه فادعى أنها لا تأكل إلا اللوز والفستق، ولا تشرب إلا ماء الورد والسكر المكرر!

فانهالت عليه كميات وافرة من تلك الأصناف، وتغالي النساء، ولا سيما نساء الأغنياء، في تكريمها فصنعوا لها قلائد وأطواقة من ذهب، وشاع خبر العنزة في بيوت الأعيان والأمراء.

ولما وصل خبر تلك العنزة إلى الأمير عبد الرحمن كتخدا- وكيل الباشا الوالي يومئذ- استنكر تلك البدعة وأصر على أن يقضي على تلك العنزة، فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يطلب حضوره مع العنزة إلى قصره ليتبرك بها هو وحريمه.

انتهز الشيخ الفرصة ونظم في صباح اليوم التالى موكبًا حافلاً، فركب بغلته والعنزة أمامه تحيط بهما البيارق والأعلام والمشايخ، وتتقدم الجميع الطبول والزمور، حتى وصل إلى بيت الأمير عبد الرحمن الذي رحب به وأجلسه مع من كان بحضرته من الأمراء والأعيان، وبعد قليل جاء رسول

من من قبل حريم الأمير يطلب العنزة، للتبرك بها، فابتسم الشيخ وصرح بذهاب العنزة.

كان رسول الحريم في الواقع هو كبير طهاة الأمير، فما كاد يتوارى عن الأنظار حتى عرج بالعنزة على المطبخ حيث ذبحها وأعدها للغداء.

ولما حان موعد الغداء مدت الموائد الموجودين، وجلس الشيخ عبد اللطيف إلى جانب الأمير عبد الرحمن الذي كان يناوله بين آن وآخر قدرا كبيرة من اللحم ويقول له: "كل يا شيخ عبد اللطيف من هذا الرميس السمين!.

فتظهر إمارات الرضا والارتياح على وجه الشيخ ويقول "والله إنه طيب ومستو وسمين!". ولما فرغ الغداء وشربوا القهوة طلب الشيخ العنزة، فضحك الأمير ضحكة عالية رددها من بالمجلس وقال: «لقد أكلتها ياشيخ عبد اللطيف!".

وبهت الشيخ وانعقد لسانه، وانتهز الأمير الفرصة فانهال عليه توبيخًا وتقريعًا، وأمر أن يوضع جلد العنزة على عمامته، وأن يعود إلى المشهد على هذه الصورة. فركب الشيخ عبد اللطيف بغلته وجلد العنزة يتوج رأسه، وسار تتقدمه الطبول والزهور وتحيط به البيارق والأعلام!...

وبعد وصول الموكب اختفى الشيخ عبد اللطيف ولم يعرف له أثر.

يتوج في بطن أمه

بديهي أن شيئًا من هذا القبيل لا يمكن حدوثه، ولكنه حدث! وذلك أنه عقب وفاة الشاه هرمز الثاني ملك فارس سنة **٣٠٩** ميلادية انقض أمراء البلاد على ورثة العرش من أسرته فقتلوا هذا وسملوا عيني ذاك وفر الباقون بعد قليل الاثنين بالرومان.

عندئذ أصبح العرش دون وارث، فثارت أطماع الأمراء وتعددت المعسكرات وأصبحت الحرب الأهلية في حاجة إلى الشرارة الأولى حتى تشتعل نارها، غير أن تدخل الماجي (رجال الدين) حال دون إطلاق السهم الأول وحقن الدماء. وأخلد الجميع للسلام وبدأوا يفكرون في إعادة أحد ورثة العرش الفارين، ولكن الخوف من انتقامهم دفع الأمراء إلى معارضة هذا الرأي.

وبينما القوم في حيرتهم إذ بنبأ سار يصل إلى أسماعهم، وذلك إن إحدى زوجات الشاه الراحل كانت في حالة حمل، وأنها ينتظر أن تضع حملها بعد بضعة أشهر ؛ فماذا لو انتظروا قليلًا حتى يتبينوا جنس المولود الجديد. وعرض الأمر على رجال الماجي لإبداء رأيهم فأيدوا النبأ، بل زادوا عليه أن المولود سيكون ذكرا. فزال بذلك شبح الحرب الداخلية.

واقترح بعضهم تتويج ملك المستقبل، فرحب الشعب الفارسي بالفكرة، وأعد الحفل دون إبطاء، وفيه جلست الزوجة الحامل على كرسي

ملكي فخم، وبين تهليل الشعب ودعائه وضع رئيس الماجي التاج على بطن الزوجة وتلا الأدعية والصلوات المناسبة للمقام. ولما تم كل ذلك هتفت جموع الحاضرين معلنة ولاءها وخضوعها للملك المنتظر.

وكان تكهن الماجي صحيحًا، فلم تمض أشهر حتى ولد الشاه سابور الثاني، وساد الاعتقاد بين عامة الشعب أن سابور ملك بعثته العناية الإلهية لينقذ الفرس من الحرب الداخلية، ولذلك حاطه الشعب بحبه، وظل طوال حكمه شديد الإخلاص والطاعة له حتى إنه استطاع بفضل ولاء شعبه أن يرد عن فارس غارات كثيرة، وأن يبطش بأعدائه الذين كان يربط أسراهم كتفًا إلى كتف بحبال وثيقة يدخلها في أجسامهم ويجرهم إلى التعذيب جماعات، ولهذا سماه العرب في تاريخهم بذى الأكتاف. واشتهر في كتاباتهم بهذا اللقب.

ملكة تتوج بعد موتها

عندما أصبحت البرتغال ميدانا للحرب بين إنجلترا ونابليون (١٨٠٨– ١٨١٩) رحل ملكها جون السادس إلى البرازيل التي كانت مستعمرة برتغالية في ذلك الحين حيث توج ملكا، وقام الإنجليز بتعيين نائب له تحت إرشادهم. وكان ولي عهده دوم بدرو **Dom Pedro**" قد بلغ سن الرشد وعن للملك أن يزوجه فتاة من الأشراف اختارها له، ولكن الأبن تعلق بحب فتاة تدعى إيتر دى كاسترو وأصر على الزواج منها، فلما فاتح أباه بحبه عنفه وأنكر عليه تلك الزيجة، ولكن الفتى لم يأبه لكلام والده وأزداد حبه وتعلقه بتلك الفتاة وأصبح لا هم له إلا التغني بجمالها آناء الليل وأطراف النهار مرددا اسمها في كل مجلس.

ورأى الملك نفسه مرغمة على قتل تلك الفتاة حتى يخلو الجو فيتزوج ولي عهده بمن اختارها له، ويتخلص من اعتبرها دخيلة على الأسرة المالكة.

ولكن الملكة تدخلت في الأمر، فأصاخ الملك لرغبتها ووافق مرغما على هذا الزواج، وزفت الفتاة لولي العهد.. ولم يكد شهر العسل ينقضي حتى ذاع في البلاد نبأ وفاتها فوريت التراب مأسوفة على شبابها مبكيا على جمالها من زوجها الذي أدرك بعد بحث وتحقيق أن والده قد أوعز بدس السم لها حتى يخلى الطريق للفتاة التي اختارها لابنه.

وانقضت عدة أشهر أعاد الملك فيها فكرة الزواج على ولده فجابهه بالرفض القاطع.

ولما استقرت الأمور بعد هزيمة نابليون عاد الملك جون إلى عرش البرتغال بعد أن ترك ابنه ملكا على البرازيل.

وبعد ثلاثة أعوام من وفاة إيتز مات الملك جون واعتلى العرش ابنه الأرمل باستم بدرو الأول، ولكنه لم ينتقل إلى البرتغال بل آثر حكم البرازيل.

ولم ينس الملك الفاجعة التي مني بها في زوجته والشرف الذي كان سينالها لو أنها بقيت على قيد الحياة، فكان أول ما فعله أن أخرج جثمانها من اللحد، وكسا هيكلها بالحلل الملكية، وتوج رأسها بالتاج الملكي، وأجلسها على عرش فخم، وقد قبضت بعظام إحدى يديها على صولجان الملك وبالأخرى على الكرة، وجلس إلى جوارها وأمر القسس بتلاوة المراسيم الدينية للتتويج.

ومرت وفود الشعب البرازيلى أمامهما في خشوع ورهبة لتؤدي فروض الطاعة والاحترام، كما ركع الكبراء والوزراء عند قدميهما علامة الولاء والإخلاص كما لو كانت الملكة حية!

أربعة أباطرة لروما في عام واحد

عندما تربع نيرون، وهو في السابعة عشرة من عمره، على عرش روما عام ٦ ميلادية تفاءل الرومانيون للمظاهر الطيبة التي استهل بها حكمه والنوايا الحسنة التي كانت مائلة في آرائه وأعماله وتصرفاته، حتى إنه– وقد اضطر يوما إلى توقيع حكم بالإعدام على أحد رعاياه.. صرخ قائلا: «ليتني ما تعلمت الكتابة!"

غير أن حوادث لاحت في أفق الدولة شاءت الظروف أن تمتحن بوساطتها نيرون، إذ انقض أعداء روما على أطرافها ينتقصون منها. وتشاء الأقدار أن ينتصر نيرون وأن ينصرف بعض الشيء إلى إصلاح الدولة وتجديد شبابها، فمضى ينظم إدارتها وينعش ماليتها، ويسهر على خير روما ومستعمراتها، ويقوى السلم في الداخل والخارج. ونجح نجاحا غير منتظر أحدث في مسلكه الشخصي رد فعل هائل، فقد خيل لكبريائه أن من حقه– وقد استتب له الأمر وتحققت على يديه الأماني– أن يطلق لنفسه العنان ويتمتع بالحياة.

وهكذا تحرر من القيود التي أحاط بها نفسه في بدء الأمر، وأخذ يستسلم لغرائزه ويتمرغ في حمأة الرذائل. فتحرر من كل قيد واستسلم للشهوات ولم يقف عند حد خلقي في نزواته فقتل أمه وأمعن في الظلم وسفك الدماء، وبدأ العالم الروماني يحتضر، وأخذت المسيحية تتغلغل في أوساط العامة، واعتنقها بعض الكبراء سرا، وبدأ المسيحيون يسخرون مما

انحدرت إليه روما، فبدأت سلسلة من الاضطهادات الموجهة للمسيحية، حتى إنه عندما علم بنبأ شبوب النار في أحد أحياء روما أمر بزيادة طيبها حتى تلتهم روما بأسرها، ونسب هذا الجرم الفظيع للمسيحيين وأمعن في اضطهادهم، وظل يضيف كل يوم جرائم فوق جرائمه حتى فكر بعضهم في التخلص منه وتحرير الإمبراطورية من طغيانه، ولكن المؤامرة فشلت وتوالت حوادث الاعتقال والتنكيل والإعدام.

وسرعان ما بدأت الأنباء تتوالى بأن الجيوش الرومانية المرابطة في بلاد الغال (فرنسا) شقت عصا الطاعة ونادت جهرة بسقوط نيرون، ثم تلتها جيوش إسبانيا ونادت بقائدها إمبراطورة، ثم أعقبتها جيوش جرمانيا منادية بقائدها إمبراطورًا أيضًا، كما أن جيش أفريقيا انتقض هو الآخر وأعلن أن قائده هو الجدير بمنصب القيصر.

وبدأ "جاليا" "Galba"، قائد القوات المرابطة بفرنسا، في الزحف على روما، وانضم إليه الأسطول، وحاول نيرون الفرار، ولكن مجلس الشيوخ أرسل كتيبة من الفرسان التعقبه، وقضى بأن يشد عنقه إلى ظهر جواد وأن يضرب بالسياط حتى يموت.

وأخيرًا قتله أحد أتباعه وخلص العالم من آثامه سنة ٦٨ ونودي بجالبا إمبراطورًا، ولكن الفرق المقيمة بألمانيا نادت بقائدها فيتيليس " Vitellius"إمبراطورًا، غير أن جالبا سبق في الحضور إلى روما، ووافق مجلس الشيوخ على تنصيبه. وأعلن بيز و ليسينيانس "Piso Licinianus" خلفًا له، فأثار ذلك قائدة آخر هو أوتو «Otho» الذي تمكن من قتل

جالبا ولسينيانس ونصب نفسه إمبراطورًا بموافقة مجلس الشيوخ أيضًا.

ولم يتمتع بالحكم إلا قليلًا إذ أن قوات فيتيليس وصلت إلى روما، فلم يجد "أوتو" بدًا من الانتحار ولاسيما أن مجلس الشيوخ أعلن تأييده لتعيين فيتيليس إمبراطورًا.

ولكن قائد القوات الرومانية في مصر انتهز تلك الفوضى وأعلن تنصيب قائد إحدى الفرق المعسكرة في آسيا الصغرى إمبراطورًا باسم فسيزيان **Vespesian**. وتكاتف قواد فرق الشرق إلى معاونته، وسارت جموع من قواتهم إلى روما، ودارت رحى الحرب من جديد، وانتهت بذبح فيتيليس، وأعلن مجلس الشيوخ تعيين فسبيزيان الذي لاقى صعوبات شديدة في توطيد الأمور وإقرار النظام بعد تلك الفوضى الشاملة والاضطراب العظيم.

وقد تكررت هذه المأساة. مأساة تولي أربعة أباطرة على عرش روما مرة أخرى في عام ٢٣٨ م، إذ أنه عندما قتل الإمبراطور مكسيموس خلفه على العرش الأباطرة جورديان الأول "**Gordian**" ثم بابينيوس"**Pupienus**" ثم جورديان الثالث وقد قتلوا جميعًا بيد الحرس البريتورى في ظروف مشابهة لما حدث الأسلافهم.

إمبراطورية في المزاد

لروما تاريخ خالد ومجد عتيد، فقد سادت العالم فترة من الزمن شملت فيه أملاكها جميع الدول المشرفة على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، يضاف إلى ذلك إنجلترا وأرمنيا وبلاد العراق، مكونة بذلك أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ، فلم تبلغ مساحتها ولا مثل نفوذها أية إمبراطورية أخرى حتى الإمبراطورية البريطانية التي لا تغرب الشمس عن مكان فيها إلا لتشرق في مكان سواه!

وللاحتفاظ بتلك الأملاك الواسعة ترك الرومان في كل مستعمراتهم حاميات.

لم يكن أباطرة روما من الأخيار العادلين بل كان أغلبهم من المستبدين الظالمين، غير أن هؤلاء وأولئك اعتمدوا في ارتقائهم العرش على قوة من الجلد هي الحرس البريتورى[1] وبعد أن كان هؤلاء الجنود تحت إمرة القياصرة يصرفونهم كما يشاءون أصبح هؤلاء الجنود هم الذين يولونهم ويسندون عروشهم ويقبلونهم بل يقتلوهم إذا شاءوا. لذلك عرف هؤلاء الأباطرة باسم (أباطرة القشلاق) ويكفي أن نذكر أنه في أواخر القرن الثاني وخلال القرن الثالث الميلاديين تربع على العرش الروماني خمسة وعشرون عاهلًا اغتيلوا جميعًا عدا أربعة. ولم يزد حكم برتيناكس "Pertinax" أول

(١) Pretorian Guarda هو الحرس الخاص بالإمبراطور.

تلك الطائفة من الأباطرة عن ثلاثة أشهر من عام ١٩٢ حاول خلالها نشر النظام ووضع حد لفساد الحكم وتدخل الجند والضرب على أيدي الطغاة، ولكنه فشل وكان مصيره القتل بيد من أيدوه.

وأعلن الجند البريتوري بعد التخلص منه، تلافيًا لتنازع القواد على من يرث تلك الإمبراطورية، أنهم على استعداد لبيع الإمبراطورية لمن يدفع أغلى ثمن، وعقدت جلسة للمزايدة في معسكره يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٣ فتقدم اثنان للشراء: سالبيسيانس "Sulpicianus" وديديس "Didus" ولما كان أولها صهرًا للإمبراطور المقتول وثروته كلها وعود اختير الثاني لأنه كان عضوًا بمجلس الشيوخ فضلًا عن سخائه في رشوة القواد وتعهده بدفع ٢٠٠ جنيه لكل جندي من جنود الحرس البالغ عددهم اثني عشر ألف جندي، ولذلك رسا عليه المزاد بمبلغ يعادل ١٢ مليون دولار.

وترامى النبأ إلى الحاميات الرومانية في الخارج فاستاء قوادها من ذلك العمل المزري، بل تمادي بعضهم في إظهار استيائه إلى حد المناداة بقائدهم إمبراطورة، فأصبح هناك ثلاثة أباطرة. إمبراطور الحامية المرابضة على نهر الفرات، وثان لحامية الرين، وثالث لحامية بريطانيا.

وكان قائد الحامية الأخيرة سبتيمس "Septimus Sever us" رجلًا حازمًا أدرك خطورة موقفه ووجود منافسين له، فعجل بالسير نحو روما ليكون سيد الموقف من البداية. ولما وصلت جيوشه إلى روما لم يقاومها الجند البريتوري مقاومة جدية، بل لم يكلفوا أنفسهم عناء الدفاع عن الإمبراطور الذي باعوه العرش وقبضوا منه الثمن، بل تركوه يقع أسيرًا في

يد الإمبراطور الجديد الذي قتله بعد أن حك خمسة وستين يومًا لم يظهر فيها أية مؤهلات حربية أو إدارية، بل إن الشعب نفسه كان يناديه كلما ظهر: "ها هو ذا سارق الإمبراطورية!".

وكان أول ما عمله سبتيمس أن كون حرسًا جديدًا من رجال الحاميات ليحل محل الحرس البريتوري الذي وصم الإمبراطورية وصمة لطخت سمعتها على مر الأيام، كما حل فرقه ونفى أفرادها خارج روما[1]، وعندما وصل إلى روما منافساه في العرش كان مركزه قد تدعم وأصبح من السهل عليه أن يسحقهما وأن يوطد عرشه.

(١)هذا الجرس لم يبلغ نهائيًا إلا في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول سنة ٣١٢ لما عاد إلى طغيانه وزاد تدخله في أمور الدولة بشكل مزعج.

الفهرس